عباس محمود العقاد

يوميات

٢

الجزء الأول

و يتبعه

الجزء الثانى

كلمة فى العنوان

تضم هذه المجموعة محصول أكثر من عشر سنوات من التعليقات التى نشرت تحت عنوان اليوميات بصحيفة «الأخبار» اليومية ، ومعها تعليقات فصول أخرى نشرت فى هذه الصحيفة وفى غيرها من الصحف أو المجلات بمختلف العناوين .

وتتسم الكتابات التى احتوتها هذه المجموعة بالسمات التى يدل عليها عنوانها : اليوميات والصحفيات : وهى امتداد المجال ، وتجدد المناسبات ، وسهولة التناول ، وسرعة المساجلة فى حينها بين النقد والرد ، أو بين السؤال والجواب .

ولا يفهم من عنوان اليوميات أنها بنت يومها أو بنت ساعتها ، إنما يفهم منه أن مناسباتها العارضة قد تكون بنت يومها - بل بنت ساعتها ولحظتها - ولكنها مجرد مناسبات عارضة للكلام فى موضوع غير عارض ، أو غير موقوت بزمن من الأزمان فى معظم الأحيان .

وقد تيسر تقسيم بعضها حسب موضوعاته الشاملة ، ولكنها فى جملتها تتأبى على التقسيم والتوزيع ، لأن الاستطراد الذى لا مناص منه فى الموضوعات المتنقلة كثيراً ما يجمع فى اليومية الواحدة كلاماً يصلح لإلحاقه بباب العقائد والمذاهب كما يصلح لإلحاقه بباب التراجم والشخصيات ، مع التطرق من هنا وهناك إلى مسائل الاجتماع والأخلاق أو مسائل الآداب والفنون ، وقد يغنى عن حصرها فى الأبواب المحدودة أن تتبع فى ختام الكتاب بفهرس للأعلام والمباحث يدل على مواضعها من الصفحات ، ولا حاجة معه إلى مراعاة التسلسل فى ترتيب الأيام .

على أن المجموعة كلها قد تلحق بباب واحد من أبواب التأليف القديم والحديث ، بل هو الأصل فى كلمة التأليف التى تعنى جمع الشوارد ونقلها من الوحشة المتباعدة إلى الألفة المتقاربة . ثم انتقل هذا الباب فى العصر الحديث بعنوان واسع يسلك فيه أشتات الرسائل والمذكرات واليوميات الخاصة أو اليوميات العامة ، منها هذه اليوميات التى كتبت من قبل ، وجمعت اليوم ، بإذن واقتراح من أصدقائنا القراء .

عباس محمود العقاد

السكوت أبلغ من كل مقال*

يؤسفنى أن أحيط سيادتكم علماً بأنى كتبت فى إحدى المجلات مقالا عن سيادتكم فاستقبلت فى مساء ظهور المقال ألواناً من السباب الشديد فى التليفون . . . ومنذ ذلك الوقت أخذ هذا المجهول يواصل شتائمه حتى اضطررت إلى إبلاغ شرطة النجدة ، وهو مرة يسمى نفسه الدكتور خفاجة ومرة يسمى نفسه كمال إسماعيل ويعلم الله أنى لا أحمل لأحد ضغناً ولا كراهية .

فهل لك يا سيدى أن ترشدنى إلى ما أفعل ؟ . . أرجو أن تلفت نظره على صفحات الأخبار حتى يرتدع . .

دكتور جمال الدين الرمادى

. . . أنت ظريف يا دكتور رمادى وايم الله ؟ ! . .

ظريف إن خطر لك أننى أعرف ذلك الذى تشكوه ، وظريف إن كنت تستعين بى عليه وأنا لا أعرفه !

وأظنك ستعرف عنى شيئاً يدعوك إلى كتابة مقال جديد – بعد هذه المعرفة – إذا علمت أننى ما سمعت بصديق لى يعتزم أن يرد على كاتب يشتمنى أو يفترى علىّ إلا رجوته أن يريح نفسه ويريح قلمه من هذه المؤنة وأقنعته بأن السكوت أبلغ فى إفحام المفترين من كل مقال .

أما إذا أصر الدكتور على أن أرشده إلى ما يفعل فليس فى وسعى أن أوصيه بشىء غير ما أوصيت به نفسى مرات بعد مرات ، أيام تعرضت لأمثال هذه الحملات ، فى التليفون وفى رسائل البريد .

إننى اليوم لا أجيب على التليفون بعد منتصف الساعة التاسعة .

ولكننى كنت فى عهد من العهود أعمل فى الصحافة الصباحية وأنتظر المحادثات التليفونية كل ساعة من ساعات الليل .

ويشاء الكثيرون من أشياع الزعماء الذين أكتب عنهم أن يبلغونى آراءهم عنى بالأسلوب الذى يشكوه الدكتور جمال الدين .

---

*الأخبار ١٤/ ٣/ ١٩٦٠ .

وكان واحد من هؤلاء يهتم على الخصوص بأخبار امرأتى – امرأتى التى لم توجد قط ولا وجود لها الآن – فيذكر لى من أسرارها ما أجهله وما يجهله هو بطبيعة الحال .

وأسمع ذلك المخبر الصادق وأستزيده من آرائه عنى ومن أخبار امرأتى لديه ، حتى انقطع ذات ليلة فطلبته أنا وعتبت عليه لأنه لم يسعدنى بتحياته ذلك المساء وتركنى مشغول البال على امرأتى التى كان يتعقبها فى كل مكان ، وسألته : أيعلم أين هى الآن ؟ أليس من العار عليه أن يقودها أحد غيره وهو بقيد الحياة ؟

وكان هذا آخر العهد به وبما يفتريه على امرأتى فى التليفون ، وفى الصحف ، لأنه كتب عنها مرة إلى صحيفة اللواء . . قبل أن يعلم أنها مخلوق غير موجود .

والدكتور الرمادى رجل سعيد الحظ مع هؤلاء المجهولين الذين يتحدثون إليه وحده ، لأنهم يختصونه بالتحية ولا يلقونها فى أذن غير أذنه ، فلماذا ، يستنجد بمن يشاركونه فى السماع ؟ ولماذا يكتمونه السر ويأبى هو إلا أن يذاع ؟

دكتور رمادى !

لا تسأل عن دكتور خفاجة ، ولا عن كمال إسماعيل ، ولا عن أحد من قرائك الغاضبين ، وألحقهم بمقال ثان . . إنهم يستحقون !

* * *

عاد سائل إلى السؤال عن رأيى فى تعليق الدكتور محمد مندور الذى يقول فيه إننى لم أفرق بين الثقافة والحضارة فيما كتبته عن سبق الثقافة العربية للثقافتين العبرية واليونانية .

وإذا كان من الكلام ما لا يرد عليه فهذا التعليق أحق الكلام بأن يترك بغير رد ، لأن الدكتور محمد مندور ينسى أن التفرقة بين الثقافة والحضارة شىء تعلمه هو من جيلنا ولا يستطيع أن يذكر له سابقة فى اللغة العربية قبل هذا الجيل .

ولم يحسن الدكتور محمد مندور – بعد – أن يفرق بينهما حتى فى تعليقه على رسالتنا ، لأن الرسالة تقوم على مسائل الكتابة والعقائد الدينية والمذاهب الروحية وهى كلها من مسائل الثقافة ، خلافاً لما يظنه الدكتور محمد مندور حين ينسبها إلى الحضارة .

ونقول للسائلين – أخيراً – عن نقد الناقدين لنا : إن الجواب يعلمه من قرأ الكتاب المفقود . فإن لم يكن السائل ممن قرءوه فهو كمن يريد منا أن نعيد له نشر ما كتبناه ليعلم ما قلناه حقًا وما يدعى الناقدون أننا قلناه .

وليس هذا مما نرتضيه لأنفسنا ولا مما يرتضيه القراء ، لأنهم بين اثنين . قارىء نعيد له ما قرأ ، وآخر نرغمه على قراءة شىء لم يقرأه باختياره ، وكلاهما فضول .

النقد السيكولوجى *

إذا لم يكن بد من تفضيل إحدى مدارس النقد على سائر مدارسه الجامعة ، فمدرسة « النقد السيكولوجى » أو النفسانى أحقها جميعاً بالتفضيل فى رأيى وفى ذوقى معاً ، لأنها المدرسة التى نستغنى بها عن غيرها ولا نفقد شيئاً من جوهر الفن أو الفنان المنقود .

إن المدرسة الاجتماعية تفسر لنا عوامل العصر فى المجتمع الواحد ، ولكنها لا تفسر لنا الفوارق بين مائة شاعر أو كاتب يعيشون فى مجتمع واحد وفى حقبة واحدة .

والمدرسة الفنية أو البلاغية تفسر لنا أسباب شيوع الذوق المختار إيثاراً لأسلوب من التعبير على أسلوب ، ولكنها قد تعرفنا بالصانع وبالقدرة على الصناعة ، ولا تنفذ من وراء ذلك إلى « الإنسان » الذى يصنع والإنسان الذى يتذوق ذلك الفن من فنون الصناعة اللفظية أو المعنوية .

أما الناقد السيكولوجى فإنه يعطينا كل شىء إذا أعطانا بواعث النفس المؤثرة فى شعر الشاعر وكتابة الكاتب ، ولا بد أن تحيط هذه البواعث ، إجمالا أو تفصيلا ، بالمؤثرات التى جاءته من معيشته فى مجتمعه وفى زمانه .

وآية القدرة فى يد الناقد السيكولوجى أن يشمل العصر كله بمقاييسه النفسانية حين يهتدى إلى وجوه المشابهة فى الأعماق ، فيرجع بها إلى سبب واحد شامل لجميع المناهج والأساليب والدوافع السيكولوجية ، وإن بدا عليها أنها تفترق بينها أبعد افتراق .

قليل من النقاد من يستطيع هذا فى عصره ، ومن هذا القليل الأستاذ « روبرت إليوت فيتش » Fitch صاحب كتاب « أوديسة الذات المحصورة » الذى صدر فى الأسابيع الأخيرة وعرضته صحافة الأدب الغربى للمناقشة ولا تزال تعرضه بين الرضا عنه والسخط عليه .

*الأخبار ٥/ ٤/ ١٩٦١ .

هذا الناقد – بالجملة – كما جاء فى بعض المجلات ينحى مرة واحدة بجرة قلم عريضة على مذاهب الإلحاد ، واللاأدرية ، والرومانتيكية ، والعقلية ، والإنسانية ، والوضعية ، والوجودية ، والسريالية ، وكل مذهب ينتهى بياء النسبة فى لغتنا أو ينتهى « بالإزم » المعهودة Ism فى اللغات الأجنبية .

كل هذه المذاهب تنتهى إلى عيب واحد وهو « الأنانية » والانحصار فى الذات ، وتركيز الاهتمام كله والشواغل كلها فيما يعنينا لذواتنا ، ولا يخرج بنا عن محيطنا .

وعنده أن المشكلة ليست مشكلة الأنانية بمعنى « حب الذات » ولكنها هى مشكلة الاشتغال بالذات إلى حد السأمة من الذات ، والاشمئزاز من الذات ، وما يصح أن نسميه باللهجة الدارجة « القرف من الذات » .

فهذه السأمة هى التى تقود الناس فى العصر الحديث إلى « تحليل الذات » وإلى « الرثاء للذات » ، وإلى كراهة الذات وحب التخلص منها بما يشبه الانتحار ، لأنه لا يخرجها من أفق الحياة الواسع ويحصرها فى هذه « الذاتية » السائمة المسئومة ، بغير رجاء .

وعلة العلل عند هذا الناقد بالجملة – ولا بد أن نذكر أنه أستاذ الفلسفة الدينية– هى الضلال عن العبادة المثلى : عبادة الله الذى لا يصح معنى العبادة كله إن لم يكن مداره على العبادة الإلهية .

ترك المحدثون عبادة الله وظنوا أنهم يستبدلون بها عبادة الطبيعة ، أو عبادة الإنسانية أو عبادة المجتمع ، أو عبادة الفضاء ، حتى صاروا إلى العبادة الأخيرة وهى عبادة «الذات» فلم يزالوا بها قبولا ورفضاً وحبّاً وبغضاً حتى صاروا بها إلى الإفلاس .

ويقول الأستاذ «فيتس» إن عبادة الذات كانت مزهوة بنفسها قبل أن تصير إلى الإفلاس الأخير ، فكان « ويتمان » شاعر أمريكا منذ مائة سنة يقول : « إننى أهيم بنفسى ، وكم لى من متعة هناك ! » .

وكان فوست بطل رواية الشاعر جيتى الألمانى يهيم بالقوة ، ودون جوان بطل رواية بيرون الإنجليزى يهيم بالسرور ويتبعهم هكسلى فيهيم بتحقيق الذات ، ثم يتبعهم كيرواك فيقول بلسانه بطله : « إننى فراغ ، إننى لا فرق بينى وبين الفراغ ، ولا فرق بين الفراغ وبينى » .

والغرض الأكبر لهذه العلة الشاملة أنه لا يلقى اللوم على الذات بل يلقيه على كل مسئول آخر أو غير مسئول ، تارة على الوراثة ، وتارة على البيئة ، وتارة على الرب المعبود ، وتارة على الدولة ، وتارة على البنات ، وتارة على الآباء ، وتارة على الحرب الباردة . . . إلا « الذات » وهى المسئول الأول إن لم تكن المسئول الأول والأخير . فإنها لا تلام ولا تزال براء من الاتهام .

وما الدواء ؟ وما الشفاء بعد كل هذا التوصيف والتشريح ؟ وكل هذا الاتهام والإنحاء ؟

الدواء فى بضع كلمات أن يذكر الإنسان أنه لا يعيش ولا يعرف العزاء بغير صلاة ، وأن الصلاة لاتكون ولا يفهم لها معنى إن لم تكن صلاة إلى الله وإذا أراد فليجرب الحقيقة وهو خالص مخلص فى هذه التجربة . . .

وإلا فقد جرب « الذات » وكل مضاف إلى الذات من حب وكراهية ، وشغلان وسأمة وتحليل وتركيب . فلم ينته إلى شىء غير الإفلاس .

إن هذا الكتاب لم يصل إلينا . بعد ، ولم نعرف منه إلا ما قرأناه من مقتبساته ومن تعليقات النقاد عليه ، ولكن القدرة على « الإحاطة » العميقة واضحة فى هذا المقدار الذى عرفناه عنه ، وهو يوافق اعتقادنا الدائم أن المصيبة كلها فى أدعياء الإصلاح أنهم يعفون « المصابين » من المسئولية ويلقونها تارة على المجتمع وتارة على الوراثة . . . وينسون أن كل إصلاح يبنى على أن الإنسان «غير مسئول» هو إصلاح مستحيل ، ولا يعنينا بعد ذلك أن يكون صحيحاً أو غير صحيح . فإن المريض الذى لا يفهم أولا أنه مسئول عن طلب العلاج النافع لا يفيده بحال من الأحوال أن يعلم ما هى العدوى ومن أين انتقلت إليه .

لا بد من نهوض « الذات » بالمسئولية قبل كل شىء ، وهذه هى الخطوة الأولى للخروج من الذات والقدرة على رؤيتها ورؤية ما حولها ، وبغير ذلك يتساوى حب الذات وكراهة الذات .

اقرءوا ما تنتقدونه*

يعلم أصدقائى أننى لا أحفل بالأقاويل التى تكتب عنى فى بعض الصحف ، وأننى قلما أتم قراءتها إذا بدأت فيها .

ومنهم من كان يتطوع للرد عليها فأرجوهم ألا يكلفوا أنفسهم هذه المشقة فى الشئون الشخصية ، بل حدث منذ سنوات أن أحدهم كتب رسالة خاصة فى البريد المستعجل إلى صحفى معروف على أثر كلام عنى نشره فى صحيفته ، ثم أخبرنى بذلك فرجوته وألححت عليه أن يستردها من مكتب البريد وحمدنا يومئذ إهمال المكتب أو كثرة العمل على موظفيه . . لأن الرسالة « المستعجلة » بقيت إلى اليوم التالى ولم تسلم إلى صاحبها بعد تفريغ الصندوق كما هو المفهوم .

لكن الصديق الفاضل الذى خالف هذه السنة فى الأسبوع الماضى مشكور أجزل الشكر على هذه المخالفة ، لأنه فى الحق قد أطلعنى على نادرة من نوادر الحياة الأدبية لم أعرف لها سابقة فى كل ما وقفت عليه من تواريخ الآداب قديمها وحديثها ، وشرقيها وغربيها ، وما جد منها وما هزل . . وكان يفوتنى ولا شك شيء لا يتكرر فى كل جيل ولا فى كل عشرة أجيال . لو أنه أغفله ولم ينبهنى إليه ، وماكان بالحسن أن يفوتنا شيء كهذا فى وقت من الأوقات .

ماذا يقول القارئ إذا سمع أن كاتباً كتب تاريخ « أحمد عرابى » ليقول إنه هو خديو مصر الذى ثار عليه الفلاح محمد توفيق . . ؟

وماذا يقول القارئ إذا سمع أن كاتباً تصدى لنقد حكيم المعرة فزعم أنه رجل عربيد ، قضى حياته فى معاقرة الخمر وأكل لحم الخنزير ومطاردة النساء على قوارع الطرقات . . ؟

شيء من هذا ، بل أغرب من هذا قيل عن كاتب هذه السطور : وهو أننى جامد على مذهب الأقدمين فى نقد الشعر والأدب ، وأننى لا أفهم وحدة القصيدة ولا أصول البنية الحية فى الكتابة ، وخير من الاستطراد فى الحكاية عن هؤلاء القائلين أنقل هنا كلامهم كما قالوه . . قالوا أفادهم الله :

---

*أخبار اليوم ٢٧ / ٢ / ١٩٥٤ .

« نجد هذا فى الحكم النقدى وفى التعبير الأدبى نثره وشعره على السواء وكما كان نقاد العرب القدامى يعدون بيتاً من الشعر أبلغ ما قالته العرب ، وبيتاً آخر أهجى ما قالته العرب ، وبيتاً ثالثاً أمدح ما قالته العرب ، وإلى غير ذلك من أفعال التفضيل ، لا يزال نقادنا وأدباؤنا من المدرسة القديمة يحتفلون كذلك بهذا المعنى الواحد أو البيت المنفرد لما فيه من أسلوب رائق ومعنى شائق . . فالعقاد مثلا يترنم بهذا البيت :

وتلفتت عينى فمـذ خفيت ... عنى الطلـول تلفت القلب

فلا نلبث أن نقرر أنه يساوى عنده ألف قصيدة . . . لماذا . . ؟ لأن العقاد مثله فى ذلك مثل بقية أدبائنا القدامى ، لا يبصر بالظاهرة الأدبية فى الوحدة العضوية المتكاملة للعمل الأدبى ، وإنما فى البيت ، فى المعنى ، فى النادرة اللطيفة ، فى العبارة المفردة » . .

أعلمت أيها القارئ إذن ما هو مذهب العقاد . . ؟ مذهبه فى الأدب هو ذلك الخلط الذى قضى حياته ينحى عليه وينكره ويشرح عيوبه وسخافاته ، ثم لا يعدم اللاغطون بهذا اللغط المخجل صحيفة يومية تنشره لهم بالعناوين العريضة وتزعم لقرائها أنها تنشر عليهم بياناً جديداً عن « الأدب بين الصياغة والمضمون من عبد العظيم أنيس ومحمود أمين العالم » . . وهما فيما علمت أستاذان فى مدارس ثانوية أو عالية . . وياخيبة الأدب والتعليم إن صح ما علمناه !

من سنة ١٩٠٩

إن قراءنا كادوا يتهموننا باللت والعجن بل بالإفراط فى اللت والعجن ، لكثرة ما كتبناه وأعدناه فى هذا المعنى منذ نيف وأربعين سنة . .

منذ حملنا القلم فى الصحافة ونحن نكتب ونعيد أن القصيدة بنية كاملة وأن الإعجاب ببيت القصيد جهل بالشعر والأدب وميزان فى النقد يجب أن نحطمه ونعفى عليه . .

وفى سنة ١٩٠٩ نشر حافظ إبراهيم قصيدته التى يقول فى مطلعها :

لقد نصل الدجى فمتى تنام ... أَهَمٌّ زاد نومـك أم هيـام

فكتبنا فى صحيفة الدستور ما خلاصته أنه أخذ قطعة من الحرير وقطعة من المخمل وقطعة من الكتان ، وكل منها صالح لصنع كساء فاخر من نسجه ولونه ، ولكنها إذا جمعت على كساء واحد فتلك هى « مرقعة الدراويش » .

إلى سنة ١٩٢١

وفى سنة ١٩٢١ أصدرنا كتاباً مستقلا لنقد الشعر الذى لا تلاحظ فيه بنية القصيدة ، وقلنا فى الصفحة السابعة والأربعين من ذلك الكتاب ، كتاب الديوان :

« . . ورأيتهم يحسبون البيت من القصيدة جزءاً قائماً بنفسه لا عضواً متصلا بسائر أعضائها ، فيقولون أفخر بيت وأغزل بيت وأشجع بيت ، وهذا بيت القصيد وواسطة العقد ، كأنما الأبيات فى القصيدة حبات عقد تشترى كل منها بقيمتها فلا يفقدها انفصالها عن سائر الحبات شيئاً من جوهرها » .

وقلنا قبل ذلك إن « القصيدة الشعرية كالجسم الحى يقوم كل قسم منها مقام جهاز من أجهزته ولا يغنى عنه غيره فى موضعه إلا كما تغنى الأذن عن العين أو القدم عن الكف أو القلب عن المعدة ، أو هى كالبيت المقسم لكل حجرة منه مكانها وفائدتها وهندستها » .

وختمنا هذا البحث قائلين : « إننا لانريد تعقيباً كتعقيب الأقيسة المنطقية ولا تقسيماً كتقسيم المسائل الرياضية وإنما نريد أن يشيع الخاطر فى القصيدة ولا ينفرد كل بيت بخاطر ، فتكون كما أسلفنا بالأشلاء المعلقة أشبه منها بالأعضاءالمنسقة . . » .

إلى سنة ١٩٢٨

وكتبنا فى البلاغ سنة ١٩٢٨ جواباً عن سؤال من الأستاذ عبده حسن الزيات عن الفرق بين الشعر العربى القديم والشعر الإنجليزى على عمومه فقلنا بعد شرح طويل :

« . . . ومن هنا كانت وحدة الشعر عندنا البيت وكانت وحدته عندهم القصيدة . . فالأبيات العربية طفرة بعد طفرة والأبيات الإنجليزية موجة تدخل فى موجة لاتنفصل من التيار المتسلسل الفياض » .

وقد طبعت هذه المقالة مع ثمانى مقالات من قبيلها فى مجموعة « ساعات بين الكتب » وظهرت من هذه المجموعة حتى الآن ثلاث طبعات .

إلى سنة ١٩٣٠

وفى سنة ١٩٣٠ ألفنا كتابنا عن ابن الرومى خصيصاً لشرح الأسباب التى تدعونا إلى الإعجاب به وأولها أنه أقرب الشعراء الأقدمين إلى المذهب الذى نختاره وأن عصره أول العصور التى فطنت لتجديد الشعر على هذا الأسلوب .

واستشهدنا فى الصفحة السادسة والأربعين بكلام الحاتمى حيث يقول :

« مثل القصيدة مثل الإنسان فى اتصال بعض أعضائه ببعض ، فمتى انفصل واحد عن الآخر وباينه فى صحة التركيب غادر الجسم ذا عاهة تتخون محاسنه وتعفى معالمه . . » .

ثم استقصينا الشواهد من قصائد ابن الرومى وعقبنا عليها فى الصفحة (٣١٦) فقلنا :

« إن العلامات البارزة فى قصائد ابن الرومى هى طول نفسه وشدة استقصائه المعنى واسترساله فيه ، وبهذا الاسترسال خرج عن سنة النظامين الذين جعلوا البيت وحدة النظم وجعلوا القصيدة أبياتاً متفرقة يضمها سمط واحد قل أن يطرد فيه إلى عدة أبيات ، وقل أن يتوالى فيه النسق توالياً يستعصى على التقديم والتأخير والتبديل والتحوير ، فخالف ابن الرومى هذه السنة وجعل القصيدة كلا واحداً لا يتم إلا بتمام المعنى الذى أراده على النحو الذى نحاه . فقصائده موضوعات كاملة تقبل العناوين وتنحصر فيها الأغراض ولا تنتهى حتى ينتهى مؤداها وتفرغ جميع جوانبها وأطرافها ولو خسر فى سبيل ذلك اللفظ والفصاحة » .

إلى سنة ١٩٤٧

وفى سنة ١٩٤٧ كتبنا فى مجلة الكتاب خلاصة شروط الشعر الحسن فعددنا فى أولها أن الشعر قيمة إنسانية وليس بقيمة لسانية ، ثم قلنا « إن القصيدة بنية حية وليست قطعاً متناثرة يجمعها إطار واحد . فليس من الشعر الرفيع شعر تغير أوضاع الأبيات فيه ولا تحس منه تغييراً فى قصد الشاعر ومعناه » .

وهذه المزية خاصة هى المزية التى شرحناها وكررناها وعدنا إليها خلال هذه السنوات فى مقالات متفرقة ، وتداولها القراء فى كتب متوالية أعيد طبعها ثلاث مرات أو أربع مرات ، ومنها كتاب أعيد طبعه بعد أسبوع واحد وهو كتاب الديوان ، ولم يسبق لكتاب عربى حديث مثل هذا الذيوع والانتشار .

والأدب للمجتمع قبل ربع قرن

وقبل ربع قرن – أى قبل أن يعرف الأدعياء كيف يتهجون كلمة المجتمع – كنا نكتب فنقول : إن آفة الأدب المصرى أنه يعيش بمعزل عن الأمة ، ومن ذلك ما كتبناه بالبلاغ فى سنة ١٩٢٧ فقلنا : « إن العزلة بين الشعب والحكومة والفوارق الدائمة بين الحياة القومية والحياة الرسمية هى علة الجدب الغريب الذى يلاحظ على آداب مصر الرسمية أى الآداب التى تجرى على تقاليد الحاكمين والرواة فى العصرين القديم والحديث » .

كتبنا هذا ورددناه ولا نزال نردده ونعنى به حين نذكر الشعب أنه مجموعة من النفوس والضمائر والأذواق والأخلاق وليس كما يريده الماديون الحيوانيون مجموعة من البطون والجلود وكفى .

فما هو السر إذن ؟

فما هو السر إذن فى تلك الحملات المكذوبة التى تصطدم بالواقع هذا الاصطدام العنيف ؟

السر الذى لايحتاج إلى بحث طويل أنها حملات لغير وجه الأدب والأمانة الثقافية ، فلو كانت لوجه الأدب لكان كاتب هذه السطور حقيقاً بالحمد والثناء ممن يقتدون بمذهبه بعد أربعين سنة من نشره وترديده وتوكيده ، وسواء كان هؤلاء الأدعياء قد اطلعوا على مذهبه فتجاهلوه أو حملوا عليه دون أن يطلعوا عليه ؛ فالحقيقة الباقية فى الحالتين أنه مقصود بالحملة لغير وجه الأدب والأمانة الثقافية .

وقد فهمنا

نعم . . وقد فهمنا ولا حاجة بنا إلى ذكاء خارق لنفهم ما وراء هذه الحملة أو هذه الحملات من أناس يترنمون بالخواجة « إيليا أهرنبرج » وأمثاله ، ويكتبون ذلك صريحاً بعد ما نقلناه من كلامهم فيقولون :

« لو قارنا بين هذه الرواية ورواية العاصفة لإيليا أهرنبرج لوجدنا فارقاً ضخماً فى المضمون وفارقاً ضخماً فى الصياغة كذلك ، فرواية أهرنبرج لا تصور واقعاً مريضاً متحللاً بل معركة تتابع عملياتها المنظورة من الكفاح المرير للقضاء على الأخطبوط النازى فى أوربا وما يواجه هذه العمليات من عقبات وصعاب . . » .

إلى أن قالوا : « ولو قارنا بين إليوت وشاعر آخر هو ماياكوفسكى لوجدنا كذلك فارقاً ضخماً فى المضمون والصياغة . . فماياكوفسكى فنان صائغ للشعر كذلك ولكنه يمجد الحضارة الصناعية الحديثة ويستبصر بالحركة الصاعدة للتاريخ . . » .

فمن هو أهرنبرج ؟ ومن هو ماياكوفسكى ؟

أهرنبرج يهودى روسى ألف رواية « العاصفة » لشفاء حزازة اليهود من ألمانيا النازية ، لا لوجه الأدب ولا لوجه الإنسانية ! . . وجاراه الدعاة الشيوعيون فى الحملة على ألمانيا يوم كانت تحاربهم ويحاربونها ، فلما دارت الدفة بعد الحرب العالمية وبدا لأولئك الدعاة أن يتقربوا من الألمان ويمهدوا لضمهم إلى الحدود الحمراء أمروه بأن يؤلف فى غير هذا الموضوع ، وحولوه إلى الميدان الفرنسى فوضع روايته الجديدة بعنوان « الموجة الأخيرة » ليشيد فيها بهمة الشيوعيين الفرنسيين وينعى فيها على الجمهورية الذاهبة ما ينعاه أولئك الدعاة !

أما ماياكوفسكى فهو الشاعر الشيوعى الذى انتحر سنة ١٩٣٠ ولحق بزميله يسنينى الذى انتحر قبله بخمس سنوات ، وأولهما لم يجاوز السابعة والثلاثين والثانى لم يجاوز الثلاثين . .

وهذا هو المثل الأعلى عند أصحابنا للشعر الحى فى سبيل الحياة !

فإذا كان هذا هو الأدب المطلوب منا فقد فهمنا وفهم الناس ووجب على هؤلاء الأدعياء ، إن كان لهم نصيب من أمانة الثقافة ، أن يدعو هذه المماحكة ويعلنوا الحقيقة ولا يضللوا بقرائهم فيخدعوهم باسم الأدب وهم لم يطلعوا على حرف مما ينقدونه ويفترون الكذب على ذويه .

وإلى الدكتور طه

وبعد ضبط هولاء الأدعياء – ولا نقول مناقشتهم – يؤسفنا أن ننتقل من حديثهم توا إلى حديث مع الدكتور طه حسين ، ولا يسوغ عندنا هذه النقلة إلا أننا نبدؤها بتعزية واجبة للدكتور ، حماه الله السوء ووقاه فضول الدعوى والأدعياء . .

لقد نسينا أن هذين الإمامين المجددين وجها البيان إلى عميد الأدب العربى الدكتور طه حسين ، وليس فى الدنيا مصيبة أحق بالتعزية من عمادة يبايع عليها هذان ، وما أشبه هذين .

ثم نبادل الدكتور بالتحية تحية أحسن منها ، وبالمشورة مشورة أحق منها بالاتباع . ومشورتنا على الدكتور أن يقرأ كتب التحليل النفسانى وأن يعيد قراءتها مرة بعد مرة ،

ونحن على يقين أنه سيعدل بعد قراءتها عن رأيه فى علاقة الأدب بهذا التحليل .

وهذه مشورة ميسورة الاتباع .

أما مشورة الدكتور فهى غير مفهومة وما يفهم منها فاتباعه مستحيل .

ماذا يقول الدكتور طه يا ترى ؟

أتراه يقول إن البواعث النفسية شىء لا علاقة له بدراسة الأدب والأدباء ؟

إذا قال ذلك فمن يتابعه على هذا الرأى ؟ ومن يعمل به فيكتب ما يستحق أن يقرأ فى هذا الزمن ؟

أم تراه يقول إن الأطباء هم المختصون بالنقد الأدبى دون غيرهم لأنهم هم المختصون بالدراسات النفسية ؟

إذا قال ذلك فأين هو المثل الواحد الذى يدعم به هذا الرأى ؟ وأين هو الطبيب أو الأديب الذى يقره عليه ؟

لو أن الدكتور كلف نفسه مؤونة الاطلاع على الدراسات التى يبرأ منها ، لعرف على الأقل أن أدواتها ميسورة للأديب . وأنها غير محرمة عليه ولا هى مقصورة على الطبيب ، ولعرف كذلك أن الأدباء هم الخبراء الذين يرجع إليهم الأطباء كلما اتصل الأمر بالتعبير وتدبر معانيه أو بالخيال وتصور رموزه .

إلا أن الدكتور طه ، على الخصوص ، أقدر من غيره على العلم بهذه الحقيقة دون أن يوغل فى دراسة النفسيات ، لأنه يعلم من عمله فى الجامعة ووزارة المعارف أن هذه الدراسة يتولاها أساتذة أدبيون ولا يشترط فيها علم الطب إلا لمن يفتح العيادات للعلاج ، ولا شك أن الدكتور يسمع باسم العالم الفاضل الأستاذ محمد فتحى ويسمع أنه يستشار فى مسائل الأمراض النفسية والجرائم التى تتولد منها ، وليس الأستاذ فتحى طبيباً ، ولكنه من رجال القانون .

قد يستغنى الدكتور طه عن الإيغال فى دراسة النفسيات إذا كان قصارى الأمر أن يلم بأدواتها ويعلم أنها غير ممتنعة على الأديب .

أما الذى لا غنى عنه للدكتور فهو البحوث التى تفرق بين الاعتداد بالنفس عند أبى نواس وعند المعرى وعند أبى الطيب وعند بشار .

فالاعتداد بالنفس وصف قد يشترك فيه هؤلاء جميعاً من جانب هنا أو جانب هناك .

ولكن من ذا الذى يفهم هؤلاء إذا فهم أنهم يصدرون جميعاً عن باعث واحد ؟

إن الاعتداد بالنفس ، بمعزل عن الدراسات النفسية ، قد يختلط هذا الاختلاط ولا يجدى فيه الاكتفاء بلفظه ومعناه فى اللغة .

أما النفسانيون فقد يعرفون اعتداداً بالنفس يدخل فى جنون العظمة ويسمونه المغالومانيا ، ويعرفون اعتداداً بالنفس يدخل فى جنون الأثرة ، ويسمونه الأيجومانيا ، ويعرفون اعتداداً بالنفس يدخل فى جنون الانحصار الذاتى ، ويسمونه الأيجوسنترزم ، ويعرفون اعتداداً بالنفس يدخل فى جنون النقص والتحدى ويسمونه نجاتفزم Negativism ويعرفون اعتداداً مثله يدخل فى جنون العناد ويسمونه ميوتزم Mutism ويعرفون الاعتداد بالنفس طبيعة فى كل مخلوق مستمداً من حب البقاء ثم تنازع البقاء ، ويعرفون منه اعتداداً بالنفس يدخل فى جنون الاشتهاء الذاتى ويسمونه النرجسية ، وهو الذى وصفنا به أبا نواس وأنكره الدكتور لأن أبا نواس لم يعلم به ولا يعترف به لو علم . . كأنه من المشروط فى الصفات أن يعترف بها الموصوفون !

إن الدراسات النفسية تميز بين هذه المدلولات التى يتميز فيها أبو نواس والمعرى والمتنبى وبشار ، حيث تجمعهم فى المعجم كلمة الاعتداد .

والدراسات النفسية هى التى تعرفنا أن الصفة الواحدة قد تجرى مع الاعتداد بالنفس وقد تناقضه فى الإنسان الواحد ، فحب التدليل مثلا قد يورث اعتداداً بالنفس وقد ينم كذلك على فقدان الثقة بها ، لأن صاحبه يعلق قيمته على التفات الآخرين إليه .

ويتفق مثل هذا فى الصفات الأخرى فنرجع إليها حسب مدلولاتها النفسية ولا نكتفى بمدلولاتها المعجمية .

وأنا أفعل هذا والدكتور يستطيع أن يفعله ، ولكنه لا يشاء لأنه يقنع بإسداء «النصح» إلى الأدباء ليفعلوا هذا ولا يفعلوا ذاك . . !

أنا أفعل هذا وأكتبه وأقرره ، وأرجو من يطلع على خطأ فيه من المختصين أن يعلنه بأسبابه ، وهو مشكور .

ولقد تابع الدكتور جماعة المستشرقين على تفسير كلام أبى نواس عن الطلول بأنه مذهب فى التجديد والإعراض عن القديم .

وفهم الأدب على هذا النحو لا يفسر لنا أن مطالع أبى نواس فى بكاء الطلول أكثر من مطالع الشعراء الأقدمين ، ولا يفسر لنا أنه يستطرد إلى السخرية

بالأنساب كلما ذكر الطلول فى سياق النعى والإنكار . ولا يفسر لنا أن الخليفة يأمره بذكر الطلول فيطيعه ويقول :

دعانى إلى ذكر الطلول مسلط * يضيق ذراعى أن أجور له أمرا

لا يفسر لنا كلام المستشرقين عن التجديد هذا الأمر من الخليفة باجتناب النعى على الطلول ، فما كان الخليفة مناظراً للشاعر فى الأدب يقول هذا بمذهب ويقول ذلك بمذهب سواه .

ولكن الذى يفسره لنا هو « عقدة النسب » فى طوية أبى نواس ، فلهذا يأمره الخليفة باجتناب ما يثير ضغائن الأنساب .

إن الدكتور طه لم يقنعنا بكل ما كتبه عن تحليلنا لأبى نواس أن ندع التحليل وأن نقول : إن النرجسية والاعتداد بالنفس كلمتان مترادفتان .

فعسى أن نقنعه نحن بالالتفات قليلا إلى كتب التحليل ، فهى ولا شك جديرة بالالتفات ، وجديرة بتصحيح كثير من الآراء .

وبهذه المناسبة

وبهذه المناسبة نقول : إننا سنعود إلى مسألة النسب جواباً لخطاب الأديب الفاضل الأستاذ « حسن قرون » وتوضيحاً لرأينا فى مزاعم النسابين عن الحميريين والعدنانيين فليست المسألة سهوة كما ظن الأديب بل هى رأى ألمعنا إليه فى كتابين قبل كتاب أبى نواس ، وهما كتاب أبى الأنبياء ، وكتاب أثر العرب فى الحضارة الأوربية .

ولعلنا نعود إليه فى موعد قريب .

أدب مدارس النقد ومدارس الدعاية بين جيلين*

من الواجب أن نفرق بين مدارس النقد ومدارس الدعاية ، لأن التفرقة بينها حماية للأفكار وصيانة للوقت وكشف للخداع الذى يروجه المخادعون لاستغلال الناس وتسخير عقولهم واستحقاق شكرهم باسم الرأى والمصلحة العامة ، وهم فى الواقع مستحقون منهم للسخط والزراية لأنهم يروجون بينهم الغفلة ويضحكون منهم وهم ينظرون إليهم مصدقين منقادين من وراء ستار الخداع والتضليل .

إن مدرسة النقد تدور حول فكرة أو حول موضوع من موضوعات البحث والمعرفة ، ولكن مدرسة الدعاية تدور حول غرض مستور فلا تعميها الفكرة إلا لخدمة ذلك الغرض بالدعوى الكاذبة والحيلة الملفقة ، ولا فائدة من البحث فى الفكرة التى تثار حولها المناقشة ، لأن أصحاب الغرض المستور ينتقلون منها إلى غيرها ويختلقون العلل اختلاقاً لترويج الدعاية المطلوبة من وراء كل فكرة ينتحلونها ، فلا نتيجة للجدل حول هذه الأفكار غير ضياع الوقت وإثارة اللغط العقيم فى الهواء ، وأوجب من ذلك وأقرب إلى احترام عقول القراء أن ينكشف الخداع عن غرض الدعاية المسمومة ، فتظهر الحقيقة سافرة لمن يريد النظر إليها ، ويستريح القارئ والكاتب من عناء القيل والقال .

* * *

فى أدبنا العربى الحديث « مناورات » كثيرة تختلط فيها مدارس النقد ومدارس الدعاية ، ويحسن بكل كاتب يحترم قلمه ويحترم عقول قرائه أن ينبه إليها ولا يسوق القراء معه إلى خدمة دعايتها المضللة بالتورط فيها ومتابعة أصحابها على أباطليها وتحويماتها .

وعندنا من خبر هذه المدارس كثير لاتتكلف الجهد للبحث عنه ، لأننا لمسناه فى طريقنا غير مرة ولا نزال نلمسه فى هذه الطريق فترة بعد فترة ، ولا حاجة بنا إلى أكثر من مثل واحد من أمثلة الجيل القريب ومثل آخر من أمثلة الجيل الحاضر ، لكشف النقاب عن مدارس الدعاية على اختلاف الأغراض والأسباب ، وسيرى القارئ أن عرض الخبر عن كل مدرسة من هذه المدارس كاف للتفرقة بينها وبين مدارس النقد البرىء ، وكاف بعد ذلك للقياس عليه وإعفاء الكاتب من تكرار التنبيه إليه ، كلما استحدث المغرضون غرضاً جديداً للدعاية ، ولا نهاية لأمثال هذه الأغراض .

* الأخبار ١٢ / ٧ / ١٩٥١ .

قبل أكثر من ثلاثين سنة نشأت عندنا مدرسة للدعاية الأدبية باسم أدب الشباب وأدب الشيوخ .

هذا هو الموضوع « العلنى » أمام أبصار القراء .

والموضوع كما قلنا لا يعنى شيئاً عند أصحاب الدعاية المغرضة غير التوسل به إلى قضاء الغرض المستور ، فإذا وصل الموضوع بأصحابه إلى ذلك الغرض فقد وصلوا إلى الهدف المقصود ، وإلا فالموضوعات بحمد الله كثيرة لا حساب لها ولا حساب عليها ، وبعد كل موضوع منها موضوع آخر وموضوعات أخريات تأتى على الأثر وتصلح للادعاء والافتراء ، إلى أن يدرك شهرزاد الصباح فتسكت أو تتكلم بالكلام المباح وغير المباح .

كانت جماعة « أبولو » تصدر مجلة شهرية بهذا الاسم ومجلة أسبوعية ، باسم «الإمام » وتصدر معهما رسائل وكراسات من مطبعتها الخاصة لترويج دعوة واحدة تسميها « أدب الشباب » وتدبير حملة واحدة تسميها الحملة على أدب الشيوخ .

وقبل نيف وثلاثين سنة لم يكن كاتب هذه السطور من زمرة الشيوخ .

كان فى الأربعين ، ولم يكن وحده فى هذه السن من الكتاب المعروفين .

كان معه فى هذه السن عبد الرحمن شكرى وإبراهيم المازنى وطه حسين ومحمد حسين هيكل وأحمد أمين مع آخرين وآخرين .

بل كان أكبر منهم جميعاً فى السن أحمد شوقى وحافظ إبراهيم وخليل مطران وحفنى ناصف وإسماعيل صبرى ، وغيرهم وغيرهم من جيلهم بين أحياء وأموات .

ولكن « عباس العقاد » فقط لاغير كان هو « الشيخ » الوحيد فى الأربعين من عمره بين هؤلاء جميعاً فى الأربعين مثله أو فى الستين والسبعين .

وكان هذا الشيخ الوحيد « شريب الأدب القديم » هو الجدير بالحملة عليه لشعره تارة ولنثره تارة أخرى ، ولشكله أو لقوله وفعله ، فوق ذلك تارات وتارات .

أما الآخرون فلم يكونوا « شيوخاً » ولم يكونوا جديرين بالحملة عليهم والانتقام منهم لأقوالهم أو لأفعالهم ، بل كانوا جميعاً أهلا للثناء وأهلا للنقل عنهم والتحدث بأخبارهم ، فى معرض الإعجاب والإطراء .

حكاية الشباب والشيوخ - إذن - ليست هى مربط الفرس فى هذه الحملة .

مربط الفرس فى الحملة كلها كان فى ديوان الخاصة الملكية بعد مقالاتى عن الرجعية وكلمتى فى مجلس النواب عن الملك أحمد فؤاد ، وكانت لذلك قصة لا يتسع الوقت هنا لشرحها بحذافيرها ، ولكن خلاصتها الكافية فى مقامنا هذا أن زبانية القصر يئسوا من إغرائى وتهديدى من ناحية الوظائف والألقاب ، فأرادوا أن يفهمونى أن سمعة الأدب نفسها ليست فى أمان من مكرهم كما ظننت ، وأنهم قادرون على النيل منى فى هذا الميدان أشد من قدرتهم على النيل منى فى ميادين الوظائف والألقاب ، والمغانم والدواوين .

وقد كان قائدهم المختار لتدبير الحملة أديبًا موتوراً يقاربنى فى السن ولا يحسب من الشباب إذا حسبت أنا من الشيوخ ، فظل فى قيادة هذه الحملة - بتمويل القصر - إلى أن خرج ناظر الخاصة زكى الأبراشى « باشا » من ديوانه بقصر عابدين . . . ثم تبدلت - فجاءة - أعمار الشيخوخة والشباب وتوقفت حملة الضغينة والسباب ، فلم يصدر عدد واحد من أعداد أبولو والإمام ، ولم تصدر كراسة واحدة من تلك الكراسات التى تحصر الشيخوخة كلها فى « شيخها » « الوحيد » ثم لا تعرف شيخاً غيره فى الأربعين ولا بعد الأربعين .

* * *

ثم عادت شهرزاد إلى الكلام المباح وغير المباح بعد ربع قرن من الزمان .

فكان الكلام المباح - أو غير المباح - هذه المرة حملة جديدة من طراز جديد : هو طراز الحرب الباردة أو الساخنة بين شعر الحياة وذلك الشعر الذى يحوم كلما حام على « بيت القصيد » . . . ولا يزيد .

ومن المسئول عن بيت القصيد ؟

المسئول عنه إنسان واحد فى العالم العربى كله هو عباس العقاد فقط لا غير . . .

ومرة ثانية أو ثالثة أو رابعة ، ينكشف للقارئ المتأمل أن الحكاية هنا غير «ذات موضوع» وأن الموضوع كله مختلق مما قبل الألف إلى ما بعد الياء .

ذلك أن قادة الحملة لم يقرءوا حرفاً مما يسطره كاتب هذه السطور منذ خمسين سنة فى موضوع بيت القصيد المظلوم .

فكاتب هذه السطور قد بدأ حملته على « بيت القصيد » فى صحيفة الدستور (سنة ١٩١٠) وتابعها بغير انقطاع إلى السنة التى استيقظ فيها « المجددون الغيورون» للزراية بشعر البيت الواحد والإشادة بشعر الحياة .

وقد ألف كاتب هذه السطور كتاباً كاملا عن الشاعر « ابن الرومى » للتنويه بسبق هذا الشاعر إلى وحدة القصيدة وإعراضه عن الشعر الذى يذكر ببيت فى المطلع أو بيت فى الختام ، أو أبيات هنا وهناك بين المطلع والختام .

فليس الموضوع إذن هو الموضوع ، وليس مربط الفرس هو شعر البيت الواحد أو شعر الحياة .

إذ لو كان هذا الموضوع لكان من حق كاتب هذه السطور على المجددين الغيُر أن يثنوا عليه ويذكروه بالخير . . . فإن عز عليهم الثناء وحسن الذكر فلا أقل من السكوت .

على أنهم قد كشفوا أنفسهم بما قالوه عن شعر الحياة كما كشفوا أنفسهم بما قالوه عن بيت القصيد .

فالشاعر الروسى « ماياكوفسكى » مضرب المثل بشعر الحياة قد مات منتحراً فى نحو الثلاثين ، ومات مثله اثنان من زملائه بين شعراء المصنع والريف ، وهما باجرتسكى ويسنينى !

وليس أعجب من « شعر حياة » يترك لقرائه القدوة السيئة بالهرب من الحياة .

وليس أعجب فى الدعوة إلى بيت القصيد من كتابة خمسين سنة فى الحملة على بيت القصيد ، ومن تأليف كتاب كامل لتفنيد بيت القصيد .

شعراء الحياة ينتحرون .

وأدباء بيت القصيد يقومون ويقعدون بالحملة على شعر البيت الواحد ويجعلونه أضحوكة النقد بترتيب أبيات القصيدة من أسفل إلى أعلى ، ومن أعلى إلى أسفل ، كما صنعنا فى كتاب الديوان .

وهذا هو الموضوع .

فهل هذا هو مربط الفرس ، أو مربط الفرس موضوع غير هذا الموضوع ، وسر غير هذا السر ، وسبب فى الخفاء لا يعنى كاتب هذه السطور من النقد والتشهير ، ولو مسح بيت القصيد من صفحات الكون ، ولو مد عمر الإنسان المعدود إلى أجل غير محدود .

فكاتب هذه السطور لم يحسن قط فى قول ولا عمل منذ استطاع أن يقول ويعمل فى ميدان الأدب أو ميدان السياسة ، وفى ميدان التأليف أو ميدان الصحافة .

وكاتب هذه السطور معصوم من الصواب والسداد ، جامع للأخطاء والأغلاط فى كل ما قال وكل ما عمل وكل ما أراد .

وما هو السبب ؟ ما هو السر ؟ ما هو الموضوع ؟

الموضوع غير مهم على الإطلاق .

الموضوع أنه مشتوم مذموم على الدوام أو مشتوم مذموم والسلام أو لا سلام!

إن مدارس الدعاية من هذا القبيل لتستغفل الكتاب والقراء إذا هى ورطتهم فى مجاراتها على تهويلاتها وتأويلاتها ، وإنها لتضيع عليهم أوقاتهم عبثاً إذا هى ساقتهم إلى جدال ينتقل بهم من محال إلى محال ، ولا سبيل بعده إلى التفاهم على حال .

وكل حقهم فى ذمة الناقد أن يكشفهم على حقيقتهم ، وأن يأبى عليهم شرف الجد فى مناقشتهم ومساجلتهم . وأن يصون هذا الشرف لمدارس النقد الصادق ، ومدارس الفكرة والموضوع ، وإنه لشرف عظيم ندين به لهذه المدارس الصالحة فيما كتبناه وفيما سنكتبه ، إلى أن يشاء الله .

أما الموضوعات من طراز شيخوخة العقاد وحده فى الأربعين ، أو من طراز بيت القصيد الذى ننعاه خمسين سنة ، فنظرة السخرية وإشارة الاستهزاء ، هى غاية حقه عندنا وعند القراء .

النقد المنهجى*

يسأل الأدب المجتهد « محمد محمد المرشدى بركات » عن ضروب من النقد الأدبى أو التاريخى ، الذى ينشر فى هذه الأيام ويطلق عليه النقاد المشتغلون به اسم النقد على المنهج (أو على المنهج العلمى فى بعض الأحيان) ويخص كاتب هذه السطور جانب كبير منه كلما تناول أولئك النقاد « العلميون » بعض مؤلفاتنا فى الأدب والتاريخ .

ويشير الأديب « المرشدى » إلى موضوعات متعددة فى كتابنا عن خالد بن الوليد تناولها أحدهم واكتفى فى معظمها بقوله : إنها تخالف الحقيقة العلمية أو إنها لا تستند إلى دليل من العلم الصحيح .

ولا حاجة بنا إلى تعريف النقد العلمى لأنه معروف يتلخص فى كلمات معدودات ، فكل ما يطلب من الناقد العلمى أن يتحرى صحة الحقائق فى الوقائع المقررة وأن يتحرى صحة الاستدلال فى المباحث التى تقوم على الرأى ولا تنتهى ، بعد ، إلى يقين قابل للتحقيق .

وقليل مما اطلعنا عليه من أقوال أولئك النقاد العلميين يصدق عليه وصف التحقيق العلمى أو وصف الفهم والاستقصاء للمعلومات الواردة فى مراجعها حول الموضوع المنقود .

القليل نادر جداً فيما اطلعنا عليه وهو ذلك القليل الذى توافر على كتابته باحثون فضلاء لهم نصيب من الفهم والاطلاع غير مظاهر التقاليد والألقاب .

أما الكثير من ذلك النقد المظلوم فى نسبته إلى العلم فهو على نوعين مختلفين :أحدهما قد أصبح ضرباً من ضروب النصب الأدبى باسم المنهج أو «المنهش» بالجيم التى يبلغ من تعطيشها أن تلتبس بالشين . . . وليس لذكر المنهش فى أقاويل هؤلاء النصابين غير غرض واحد وهو مداراة العجز وراء الادعاء الكاذب وإهدار الحقائق فى سبيل الطنطنة بالألقاب والمصطلحات ، ومنهم من ينقد الكتاب ولم يقرأ غير العناوين وأطراف الفصول من هنا وهناك على غير فهم ولا أناة ولا رغبة صادقة فى الإدراك والإنصاف .

* الأخبار ٩ / ٥ / ١٩٦٢ .

والنوع الثانى أقرب من ذلك إلى حسن النية ونزاهة الغاية ، ولكنه يقع فى الخطأ « العلمى » لوقوفه عند القليل من المعلومات وقصوره عن واجب الاستقصاء والإحاطة بالموضوع .

ونكتفى بمثل واحد من أمثلة هذا النقد فيما رواه الأديب « المرشدى » عن موضوعات كتابنا عبقرية خالد ، وهو موضوع معرفة العرب فى البادية بقيادة الجيوش الكبيرة قبل الإسلام . . فإن النقد الذى رواه الأديب ينفى هذه المعرفة ويأخذ علينا أننا استشهدنا بالمناذرة والغساسنة وهم – كما قال ذلك الناقد – سكان حاضرة ولا يحسبون بين أبناء البادية فى الجاهلية .

فهذا المثل القريب نموذج للنقد الذى يخالف العلم لنقص المعلومات وقلة الالتفات إلى معانى الكلمات .

فالغساسنة والمناذرة – قبل كل شيء هم أهل بادية كما هو ظاهر من نسبتهم إلى مواضعهم ، وهى ماء غسان ومدينة الحيرة .

فمهما يكن من موقع غسان فهو فى الأصل موقع فى البادية سواء كان اسم موضع بتهامة أو كان اسم ماء كما جاء فى أشهر الأقوال :

إما نشأت فإنا معشر نجب   الأزد نسبتنا والماء غسان

وقد كان جمعهم الأكبر من سكان مشارف الشام فلم تشتهر باسم غسان إلا القبيلة التى عرفت باسم « آل جفنة » بعد زوال إمارة « تدمر » وتفرق عشائرها بين جوانب الصحراء .

أما المناذرة فاسم عاصمتهم نفسها وهى « الحيرة » هو بالسريانية « حيرتيا » أى «المخيم » أو مجموعة الخيام ، وقد سميت بهذا الاسم كما هو ظاهر لأنها كانت معسكر خيام بدوية حيث نزلت القبيلة إلى جانب الفرات .

وليس قيام الأمراء فى بلاد الحاضرة بمانع أن تكون القبائل كلها بادية تجول بالإبل والماشية حول مشارف العمران ، فقد كان رؤساء القبائل يقيمون فى مكة وصنعاء وعدن وكانت القبائل كلها تتفرق بين جوانب الصحراء على مقربة من تلك المدن أو بعيداً منها حيث تتجه بها دواعى الترحال فى طلب المرعى والسقاية .

وإذا كان الكلام عن « الجيوش الكبيرة » فمن الواجب على الناقد العلمى أن يذكر أن أمير الحيرة أو أمير « تدمر » أو أمير « جلق » لا يجمع الجيش الكبير من

أزقة بلدته وهى لا تتسع لجيش كبير من الرجال والنساء والأطفال ، فضلا عن الجند المسلحين المستعدين للقتال ، ولابد له من مدد القبائل التى ينتسب إليها ويقدر على حماية البادية حوله لانتشارها بين أنحائها ، ولو كانت كل قوة المناذرة أو الغساسنة فى المدن لما احتاجت دولة الفرس ولا دولة الروم إلى الاستعانة بهم على حماية الطريق بين العراق والجزيرة العربية أو بين العراق ومشارف الشام ، لأن تحصين المدينة بالجند النظامى كاف لضمان الأمن فيها ودفع أسباب القلق من ناحيتها ، ولكن البادية بعشائرها المتفرقة هى التى كانت مصدر القوة العسكرية لبنى المنذر وبنى غسان ، وعليها كان معولهم الأكبر فى تجنيد الجنود وجمع الجيوش ومحالفة الأكاسرة والقياصرة بين وادى النهرين وعاصمة قسطنطين وعواصم اليمن والحجاز .

هذا هو محصول « النقد العلمى » الذى يتناول ما نكتبه فى الأدب والتاريخ ، وغاية ما فيه أننا إذا التفتنا إليه من حين إلى حين فإنما هى عركة أذن مليحة للشاطر «العلمى» الذى يتصدى للنقد بغير عدته ويحسب أنه ينجو بأذنه سليمة إذا أطلق لسانه « المنهشى » فى غير موضع للنهش واللهاث !

العقول المتخلفة ! *

تعصب على اللغة العربية

بعض المؤرخين الغربيين يغلب عليهم ضرب من التعصب على حضارة اللغة العربية لأسباب غير الأسباب الدينية أجملنا الكلام عنها فى مقال قريب من مقالات أخبار اليوم .

ونقول يغلب على بعضهم ولا نقول إن هذه النزعة تشملهم جميعاً لأن التاريخ لاتشمله نزعة واحدة فى أمم كثيرة ، وقد يوجد من المؤرخين الغربيين من يتعصب للحضارة العربية ويبلغ فى تعصبه لها حد الحماسة كما نرى مثلا فى بلاسكو إيبانيز وجوستاف لى بون ، ولكن نزعة التعصب على حضارة اللغة العربية قائمة مع هذا لا بد أن يفهمها القارئ العربى وينفذ إلى سرها ، ولا يستعصى عليه النفاذ إلى هذا السر لأنه قريب .

أسباب غير دينية

فالكاتب الغربى ينظر إلى الهنود والفرس نظرة الغربيين إلى الشرقيين ، ولكنه إذا اطلع على أثر بليغ من آثارهم فى الشعر أو النثر أمكنه أن يدعى لنفسه أو لقومه حصة من الفضل فيه . لأن اللغات الهندية والفارسية والجرمانية واللاتينية ترجع إلى أسرة لغوية واحدة هى الأسرة التى عرفت فى العهد الأخير باسم السلالة الآرية ، أو التى عرفت فى مباحث اللغات باسم الأسرة الهندية الجرمانية .

وإذا اطلع الكاتب الغربى على أثر كهذا فى اللغة الصينية نظر إليه نظرته إلى الغرائب التى لا تدخل فى معترك الحياة الحاضرة « وعامله » كما يعامل قطعة من الآنية الخزفية يغالى فيها على أنها حلية مستغربة فى بلاده ، فلا ينافسها منافسة النظير .

أما الآداب المغولية فقد تعود الأوربيون أن يصبغوها بالصبغة الأوربية فى ميدان واسع من ميادينها الفسيحة ، وهو ميدان القارة الأوربية من مشارقها إلى أواسطها ،

* أخبار اليوم ٢٠ / ١٠ / ١٩٥٦ .

وقد تعودوا مع صبغهم للآداب المغولية بهذه الصبغة أن ينظروا إليها نظرة التعالى ، من جانب الأصيل العريق على الطارئ المتمسح الذى لا ينافس ثقافتهم ولا يزحزحهم عن مكانها .

هذه نظرة لا يسعه أن ينظر بمثلها إلى حضارة اللغة العربية ، لأنها « سامية » وليست بآرية ، ولأنها وقفت موقف المنافسة زمناً طويلا لحضارته الحديثة فى إبان نشأتها .

بل هو لا يسوى بينها وبين جميع الأمم السامية فى العطف أو الجفاء . لأن الأوربى أو الغربى قد يكره اليهود « الساميين » ولكنه لا ينسى أن كتابهم وكتابه يجمعهما مجلد واحد ، وهى مقاربة فى ناحية من نواحى الثقافة تدخل فى الحساب عند النظر إلى تقارب الثقافات .

والحضارة المصرية أيضاً

ويسرى على الحضارة المصرية أحياناً ما يسرى على الحضارة العربية فى هذه النزعة .

فإننا على الرغم من اعتقاد بعض المؤرخين أن المصريين الأقدمين وفدوا إلى وادى النيل من القارة الأوربية لا نرى لهذا الاعتقاد أثراً يذكر فى شعور الغربيين بالعصبية العنصرية ، لأنهم لا يشعرون بأن أبناء وادى النيل الأقدمين نقلوا إلى الوادى شيئاً من حضارة القارة قبل خروجهم منها !

وفيما عدا علماء المصريات لا نرى إلا القليل جداً من المؤرخين الغربيين يستريح إلى تمييز الحضارة المصرية القديمة بالفضل كلما تنازعته الحضارات اليونانية وحضارة بين النهرين وحضارة وادى النيل ، ويبدو ذلك من حكمهم على أصول علم الفلك وأصول الكتابة وأصول الإيمان بالتوحيد وغيرها من الأصول .

المناسبة

ونعود إلى هذا الموضوع لأننا لم نكد نفرغ من كتابة المقال السابق حتى وصل إلينا كتاب كبير يحمل الشاهد البين على صدق ما لاحظناه فى ذلك المقال ، ونعنى به كتاب « تكوين العقل الحديث » الذى ألفه الأستاذ جون هرمان راندال واشترك فى ترجمة أجزائه إلى العربية الدكتور جورج طعمة والأستاذ برهان الدين الدجانى والدكتور محمد حسين هيكل ، وأصدرته أخيراً دار الثقافة ببيروت .

هذا الكتاب يكشف عن نزعة مؤلفه بالخط العريض فى أساس « التكوين » الذى اختاره لمولد العقل الحديث ، فإنه اختار القرن الثانى عشر تاريخاً لهذا المولد ، ووضع بذلك فاصلا حاسماً يستثنى المؤثرات التى سبقت هذا القرن وفى طليعتها الحضارة الأندلسية واتصال الأوربيين بالشرق العربى أيام الحروب الصليبية .

والمؤلف – على اطلاعه الواسع – يغضى عن الدلائل والعلامات التى لا سبيل إلى الإغضاء عنها إلا لمن يتعمده ويدير بصره بيديه ، لأن المؤثرات التى ترجع إلى حضارة الشرق العربى واضحة مجسمة فى ميادين العلوم وميادين المعيشة اليومية . ففى علوم الرياضة والفلك يعرف الجبر فى اللغات الأوربية باسمه العربى وتسمى الأرقام باسم الأرقام العربية ولاتزال أسماء الكواكب والمنازل السماوية يتخللها الكثير من المصطلحات العربية ومنها ما نقلوه محرفاً فحافظوا على تحريفه كما فعل بعضهم فى نقل النجوم الفرود « أى المفرود » بالفاء فجعلها النجوم « القرود » كما قرأها محرفة بالقاف .

وعلوم الملاحة التى لها الأثر الأكبر فى تكوين الحضارة الغربية وتوسيع آفاقها لاتزال محفوظة بأعلامها العربية حتى ما كان منها متصلا بالإجراءات القانونية كالحوالة Avala والعوار Avar والوصل Wissil وطرح السفن Tare وغيرها من التعبيرات أو الأدوات .

أما أثر التكوين العقلى الذى يبدو من الحياة اليومية فيكفى أن نذكر منه القهوة والسكر والجبة والقميص والحرير الموصلى والحرير الدمشقى والحرير الغزى والجلد المراكشى والقلويات وما إليها لتعلم من تغلغلها فى الحياة اليومية كيف تولدت المؤثرات فى تكوين العقل الحديث .

عذر ولا عذر

هذه الملاحظة التى لاحظناها من قبل ونلاحظها اليوم لم تفت زميلنا الكاتب المحقق الدكتور محمد حسين هيكل فى المقدمة الوافية التى مهد بها لترجمة الكتاب ، فإنه نبه إليها فى الصفحة الخامسة عشرة فقال عن اختيار الؤلف للقرن الثانى عشر : « إن هذا الاختيار يدعو للاعتقاد بأن المؤلف يرى أن ما حدث فى العالم من تطور التفكير قبل القرن الذى اختاره لم يكن له أثر حاسم فى تكوين العقل الحديث ، ويؤيد اعتقادنا هذا أنه لم يذكر مجهود المسلمين فى التطور الفكرى للعالم إلا ما كان من ترجمتهم كتب اليونان وفلسفتهم إلى لغتهم العربية » .

قال الدكتور هيكل هذا ثم أشار فى الصفحة التاسعة عشرة إلى عذر يلتمسه المؤلف لاختياره يلخصه الدكتور فى قوله : « إن العقل الحديث الذى يتحدث عن

تكوينه هو العقل الأوربى أو العقل الغربى دون سواه ، ومنذ انهارت الإمبراطورية الرومانية فى روما كان الشمال الغربى من أوربا فى شبه عزلة عن العالم وكان أهله أشبه بالشعوب التى نسميها اليوم بالشعوب المتخلفة عقلياً أو ثقافياً ، وكذلك ظلوا إلى القرن الثانى عشر . . . » .

وهذا العذر من المؤلف موضع خلاف كما قال الدكتور هيكل لا يقبل على علاته . ونحسب نحن أنه عذر مرفوض قطعاً فيما يتعلق بالشمال الغربى من القارة الأوربية قبل غيره من أقاليم تلك القارة ، ولا نستند فى ذلك إلى رأينا أو شعورنا بل نستند فيه إلى آراء الثقات من الغربيين ونذكر منهم مؤلفى كتاب «الحضارة الأوربية سياسية واجتماعية وثقافية» وهم أساتذة الفلسفة جيمس وستفال توسون وفرانكلن شارلز بام وفان نوستراند . فإنهم يقولون عن أثر الثقافة التى انتشرت من بغداد والقاهرة والقيروان وقرطبة فى القرن الحادى عشر ووصلت إلى الشمال الغربى من القارة الأوربية بصفة خاصة : « إن تسربها لم يكن من أثر الحروب الصليبية كما يسبق إلى الخاطر ، ولكن جاء من طريق صقلية إلى إيطاليا ومن إسبانيا المحمدية إلى إسبانيا المسيحية ثم إلى فرنسا ، وتسابق الرجال من ذوى العقول اليقظى إلى بلارمة وطليطلة لتعلم اللغة العربية ودراسة العلوم العربية ، والعجيب أن معظم هؤلاء الرجال كانوا من الإنجليز مثل أديلارد أوف بات ودنيال أوف مورلى وروجر أوف هيرفورد وإسكندر نكوام ، وكانت رسالة إديلارد فى المسائل الطبيعية أول مؤلف علمى أنتجته أوربة الغربية فى القرون الوسطى ، وقضى بعض الطلاب سنين عدة فى إسبانيا ثم قضوا أعمارهم كلها فى هذا العمل المقصور على ترجمة الكتب العلمية العربية إلى اللغة اللاتينية . . وترجم جيرارد أوف كريمونا المتوفى سنة ١١٨٧ فى الثالثة والسبعين من عمره واحداً وسبعين كتاباً مختلفاً من هذه الكتب وقاربه فى وفرة الإنتاج أفلاطون أوف تيفولى . وعلى هذا النحو كانت أوربة قد استولت فى مستهل القرن الثالث عشر على محصول العلم الإغريقى والعربى بحذافيره » .

وهؤلاء المؤرخون المختصون بأطوار الحضارة الأوربية منذ القرون الوسطى يعلمون كما يعلم المؤلف أن العرب ترجموا كتب الإغريق ولكن علمهم بهذا لم يمنعهم أن يسموا العلوم التى استفادها الغربيون منهم باسم العلوم الإغريقية والعربية ولم يمنعهم كذلك أن يقابلوا بين الثقافة كما تركها الإغريق وبين هذه الثقافة كما أسلمها العرب للغربيين فيعلموا بالمقابلة العادلة ما طرأ عليها من الزيادة والتحسين والابتكار .

إلا أن صاحبنا مؤلف كتاب « تكوين العقل الحديث » واحد من تلك الزمرة التى تتعصب للغرب وتتوهم أنه غير قابل لإخراج شىء من الآداب ينتقد أو يعاب ، فلولا الشرق - على زعمه - لكانت الفلسفة الإغريقية نفسها خالية من فلسفة الزهد والإعراض عن الحياة الجسدية ، ولولا « روح الغرب » لما بلغ من المسيحية إلاأن تكون ديانة شرقية « أقل قسوة» من الديانة العبرية !

ولقد نظر المؤلف إلى الديانة العبرية بهذه العين المنحرفة فقال عن قانون سفر التثنية : « بل نجد هذا القانون مزيجاً من الوحشية والمثل التى تسمو عليها ومن الأخلاق المتعطشة للدماء التى عرفها الشرق القديم » .

فأما أن العقائد الإسرائيلية قد اشتملت على قسوة وحشية فذلك صحيح قد فطن له الشرقيون أنفسهم حين دانوا بالمسيحية والإسلام . وأما أن الشرق هو مصدر التعطش للدماء وأن الروح « الهيلينية » أو الإغريقية سلمت من هذه الوحشية فهو غير الصحيح وغير المشهور من تاريخها القديم وفيه على الأقل قصة الغضب من الجنس البشرى والحكم عليه بالفناء ثم تعديل هذا الحكم بشطر كل من أفراده نصفين تعجيزاً له عن طلب الكمال ، ثم الحكم على « برومثيوس » بالعذاب السرمدى مشدود الوثاق إلى جبل بعيد مكشوف الكبد للعقبان تنهشها بالنهار ويعيدها الإله سليمة بالليل ليجدد له العذاب عند طلوع الصباح ! . . وما كانت جريمة برومثيوس إلا أنه فتح أعين الآدميين للنور والعرفان !

والخلاصة

والخلاصة بعد التأمل فى موازين المؤلف ومكاييله أنه يزن بوزنين ويكيل بكيلين ، وأنه لو استطاع أن يقول إن الغرب لم يستفد من الشرق شيئاً غير مايحسن الخلاص منه لما رجع بتكوين العقل الغربى إلى أثر وراء شواطئ القارة الأوربية وجبال الأورال .

وهذه نزعة يجب أن نفهمها حق فهمها لنفسر هذا الزيغ البين عن الإنصاف فى تقدير بعض المؤرخين الغربيين لمحاسن الثقافة العربية قديمها وحديثها إلى أيامنا التى نحن فيها ، واختصاصهم هذه المحاسن بالإنكار أو بالتطفيف والتصغير كلما وازنوا بينها وبين محاسن اللغات الغربية والشرقية .

ولا نحب - قبل الختام - أن نصاب بهذه النزعة فننكر مزايا الكتاب الذى ننعى عليه هذا الزيغ فى موازينه . فإنه على ما فيه من عيب ، كتاب يخرج منه القارئ بمحصول نافع من المعلومات عن تطور الفكر الحديث .

أحاديث المائدة *

فى إحدى يومياتى القريبة أشرت إلى كتب اليوميات وأحاديث المائدة فى الغرب ، وقلت إننى قد أعود إلى بيان أسباب الالتفات إليها فى عصرنا ، لأن لها شأناً فى تحول الحركة الأدبية إلى وجهة غير وجهتها .

عاد بى إلى تتبع هذه الكتب - كتب اليوميات وأحاديث المائدة - أن المطبعة الإنجليزية أخرجت فى خلال سنة واحدة نحو خمسة كتب عن الدكتور صمويل جونسون صاحب أكبر ترجمة غربية تدور على اليوميات وأحاديث المائدة ، وكانت العناية فيها بشخصيته أعظم من العناية بمؤلفاته وآثاره الأدبية ، ومنها ما يتكلم عن شبابه قبل اشتهاره واستقرار مكانته فى عالم الثقافة ، ومنها ما يلخص أحاديثه ويعرض منها للناحية البيتية أو لناحية المعيشة أو العلاقات بينه وبين أصدقائه ومشاهير عصره .

ومع هذه الكتب عن صمويل جونسون ظهرت كتب أخرى عن أعلام الأدب فى القرن الثامن عشر أو القرن التاسع عشر ، ممن لاتجمعهم غير صفة واحدة : وهى أنهم « شخصيات إنسانية » يهتم القراء بأحوالهم وأحاديثهم وغرائب أطوارهم كما يهتمون بكتاباتهم وآرائهم وآثارهم المطبوعة .

ولعلنا لا نبخس صمويل جونسون قدره إذا قلنا إنه يعيش اليوم بترجمته التى كتبها تلميذه بوزويل ويوشك ألايذكر بكتاب من كتبه ، وأعجب عجائب الشهرة الأدبية ونقائض الأحكام عليها من أصحابها وغير أصحابها أن صمويل جونسون كان يغضب إذا سمع أن بوزويل يكتب « حياته » . . ويقول إننى سأنتزع حياته إذا كتب حياتى . . لأنه كان يعلم أن بوزويل صاحب « قفشات » لا تفوته شاردة ولا واردة من أضاحيك الرجل ، ولم تكن أضاحيكه فى الأحاديث ولا فى الأطوار الشخصية بالقليلة .

ما سر هذه العناية بجونسون ونظرائه من أدباء القرن الثامن عشر وما بعده ؟

سرها أنهم جميعاً كما قلنا أصحاب « شخصيات إنسانية» بينة الملامح ملحوظة الأطوار ، وليس أدعى إلى الاهتمام من شيوع الأدب « المسموح » الذى يكاد أن يكون أدباً آلياً فى العصر الحاضر ، ومعظم أدبائه نماذج بشرية ولا شخصية لها ، ولا معول لها فى جذب الأنظار إليها غير « التفانين » الملفقة يموهونها باسم المدارس

* أخبار اليوم ١٢ / ٥ / ١٩٥٦ .

والمذاهب أو الأحزاب الفكرية أو الفلسفية ، ولا شيء فيها ما يستحق لفت النظر غير الاصطناع الذى يشبه المشى على الرأس أو القفز على قدم واحدة أو تغشية الوجه بالأصباغ والبراقع ، لتعويض الشخصية الإنسانية بهذه الملامح البهلوانية .

إن الإنسان يبحث عن « الإنسان » فى عصر الآلة فلا يجده إلا فى شكل آلة مصطنعة أو أفنونة من أفانين التهريج والضوضاء على غير طائل .

ولقد كثر هذا الشخص بعد الحرب العالمية الأولى وتعددت أسماؤه ولا حقيقة له وراء هذه الأسماء غير الاصطناع والتلفيق .

ولك أن تعرض أمام نظرك عشرين عنواناً من عناوين هذه المدارس أو المذاهب فلا ترى خلفها من الحقيقة غير التهريج أو الجدل أو الاصطناع ، أو لا ترى خلفها بعبارة أخرى غير المشى على الرأس أو القفز على القدم الواحدة أو الرقص بالريش والجلاجل والبراقع ذوات الأصباغ والأهداب .

سور ريالزم Surrealism وسوبرامتزم Suporematism ودادیازم Dadiasm وورقيات Papiers-Colles وذئبيات أو وحشيات Fauvism ورقاعات وشفاعات ،يقف أمامها أناس من الفارغين يصطنعون الجد لينتقدوا ويفسروا ويعلقوا ويلفقوا وليس أمامهم فى الواقع ما يساوى تفسيراً أو تعليقاً أكثر من صفعتين على القفا ، و«اذهب يا ولد أنت وهو لشغلك » . إن كان لهم شغل غير هذه البطالة الجوفاء .

الأدب الآلى والتقاليع البهلوانية هى سر الالتفاف إلى أعلام « الشخصيات » التى تعنينا بملامحها الإنسانية كما تعنينا بملكاتها الفنية أو الثقافية ، وإن صفحة واحدة من أدب هذه « الشخصيات » الصادقة لتعطينا من زاد الحياة ما لا نأخذه من مائة « شوال » مملوء بذلك السخف المصطنع الرخيص .

* * *

وسأخص فى هذا المقال جلسة أو جلستين من جلسات القراءة أو جلسات المصاحبة والمزاملة مع أصحاب الأحاديث التى اشتهرت باسم أحاديث المائدة وأولهم صمويل جونسون يعرفه كل قارئ من قراء التراجم فى الآداب الإنجليزية .

دخلت السيدة سيدونز Siddons أكبر ممثلات العصر إلى مسكن الفيلسوف المتواضع فلم تجد كرسيًا تجلس عليه ، لأن عدد الكراسى فى البيت لا يزيد على عدد الزوار المعهودين ، وهم آحاد قليلون .

لم يضطرب الفيلسوف ، بل اتخذ من هذا الحرج مناسبة كأجمل المناسبات لتحية ممثلة مشهورة ، وانحنى وهو يشير إلى الكرسى الذى أخلى لجلوسها قائلا ما معناه :

عفواً يا سيدتى . فحيث توجدين لا توجد كراسى خالية ، وأنت التى تتركين الكثيرين يبحثون عن الكراسى أحق الناس بقبول العذر فى هذا المقام .

ويدور الحديث عن الأدوار التى تحبها الممثلة الكبيرة فتقول له إنها تفضل أدوار كونستانس وكاترين وإيزابلا من روايات شكسبير ، وكلها شخصيات تفيض بالحياة الأنثوية على اختلاف الأمزجة والأهواء .

ويوافقها الفيلسوف على اختيارها ثم يخص بالتنويه دور كاترين الأرجوانية ملكة إنجلترا فى عهد هنرى الثامن ، ويرجوها أن تمثل هذا الدور قريباً ليسعد برؤيته ، فتنصرف على وعد منها بتمثيله وتمثيل غيره مما يقترحه الفيلسوف .

والحق أن الممثلة الكبيرة كانت على صواب فى تسمية الشخصيات النسوية التى تبرز فيها ملكاتها ، وأن الفيلسوف كان على صواب فى اختصاص دور كاترين من بينها ، لأنه دور لا تنفد عبرته الحية فى زمن من الأزمان ، ولعلنا كنا نعبر بهذه العبرة قريباً حين تحدثنا عن أثر الخبرة والمعاشرة فى الزواج ، فإن هنرى الثامن قد أكره إكراهاً على قبولها ثم هام بها بعد فسخ العقد بينه وبينها وكاد أن يتعرض للحرمان من وراثة العرش لإصراره على الزواج منها .

وتغادر الممثلة الكبيرة مسكن الفيلسوف البليغ فيكتب إلى سيدة من معارفه يذكر لها أثر هذه الزيارة فى نفسه فيقول إنه قد أعجبه من زائرته الكريمة أن الثروة والشهرة لم تغيرا شيئاً من أخلاقها الفاضلة ، وهما الخطر أكبر الخطر على مكارم الأخلاق . .

إلا أن هذا الرجل اللبق فى تحية السيدات لم يكن بهذه اللباقة فى جميع التحيات أو جميع المخاطبات ، فإن خطابه إلى النبيل الأديب اللورد شستر فيلد لا يزال مثلا من أمثلة التوبيخ « اللطيف العنيف » بين الرسائل المحفوظة فى الآداب الأوربية ، وقد كان جونسون ممن التمسوا معونة النبيل الأديب على طبع كتاب من مؤلفاته فلم يعنه ولم يحفل بجواب سؤاله ، فلما انقضت سبع سنوات على ذلك الطلب واستغنى جونسون عن رعاية السراة والعظماء . أرسل إليه اللورد يعرض عليه معونته فكان الرفض فى هذه المرة من جانب الفيلسوف العزوف ، وكانت خلاصة جوابه أنه لا يحتاج إلى عوامة النجاة على ساحل السلامة بعد أن خاض اللجة وسبح فيها بين خطر الغرق واللهفة على النجاة . . وهذا الجواب الصارم هو الجواب الذى استعاره برنارد شو للرد على لجنة نوبل يوم منحته جائزتها وهو فى أوج الشهرة غنى عن المعونة والتشجيع .

كلا ! لم تكن لباقة الفيلسوف مع الحسان من ربات الفن سواء فى كل خطاب ، ولم تكن لذعاته – كذلك – وقفاً على النبلاء الذين يرفضون معونته ثم يحاولون أن

يفرضوها عليه بعد استغنائه عنها . بل كان للجنس اللطيف نصيبه من تلك اللذعات ، وحديثه مع الحسناء مسز ثريل Thrale ينم على نصيب تلميذاته ومريداته من أسلوب « التحيات » الذى استخدمه فى رسالته إلى اللورد شستر فيلد :

دار هذا الحوار ذات يوم بينه وبين المريدة الحسناء !

مسز ثريل – تحياتك نادرة يا سيدى ولكنك إذا تفضلت بها كانت مثلا لا نظير له فى البلاغة ، فإذا غضبت فما من أحد يجسر على استخدام أسلوب من الخطاب يضارع أسلوبك فى القسوة وفى الشدة .

دكتور جونسون : سيدتى ! إننى آسف دائماً كلما نطقت بكلام قاس ، ولا أنطق بمثل ذلك الكلام إلا إذا ضويقت وجاوزت المضايقة بى حد الاحتمال .

مسز ثريل : نعم ياسيدى . ولكنك تضيق ذرعاً بأمور قلما يضيق بها أحد . وإننى لعلى يقين أننى تلقيت نصيباً من قوارسك فى هذه النوبات .

دكتور جونسون : الحق أنك قد تلقيت ذلك النصيب ، ولكنك تلقيته بصبر الملائكة وكان فيه الخير « الملائكى » بعد ذاك .

مسز ثريل : أعتقد ذلك يا سيدى . لأننى تعلمت منك ما لم أتعلمه من رجل آخر ولم أتعلمه من كتاب . وكانت كبريائى حين أشعر بأننى أستحق عنايتك بتعليمى أعظم من الكبرياء التى يجرحها التأنيب . . فأنت تقوم بالتأنيب وأنا أظفر بالفائدة !

وكان فى المجلس سيدة تدعى مسز بيرنى فقالت : وكلاهما فيما أعتقد مشرف للطرفين .

قال دكتور جونسون : وكذلك أعتقد . . إلا أن مسز ثريل مخلوقة حلوة عذبة الروح ، ولها خلق من أجمل ما رأيت فى أخلاق النساء .

مسز ثريل : أقول لك يا سيدى – بغير تزلف – إننى لا أستمع إلى ملامك فى حضرتك وحسب . بل أظل أسمعه وأذكره فى مغيبك . ولا أزال أسأل نفسى : ترى هل يرضيه عملى هذا أو يعرضنى لملامه ؟ ثم لا يغيب عن بالى أنك لا تناقش أحداً فى الرأى كما تناقشنى .

مسز بيرنى : ألا إنكما قد ألف كلاكما صاحبه حتى تعودتما أن يحتمل أحدكما من الآخر ما يكفى لقتل الطارئ الغريب .

دكتور جونسون : صحيح . . إلا أننا كنا نتناقش هكذا قبل أن تنعقد بيننا هذه الألفة .

مسز ثريل : آه . . إننى ليخطر لى أحياناً أننى لن أموت إلا بكلمة من تلك الكلمات الصارمة التى يقولها لبعض الناس فإن ما يقوله لى أحتمله لعلمى بحبه

إياى . ولكنى أحسب ما يقال للآخرين جد قاس !

دكتور جونسون : كيف يا سيدتى ! . . إنك أنت التى تحرضيننى على المقالة القاسية حين تطلبين التقريظ فى غير موضعه . . ولولا أنك تطلبين ثنائى لما تعرضت لملامتى . . إذ لا شيء يضايقنى أن أطالب بالثناء على أمر لا يستحق عندى غير الملام .

مسز بيرنى : إننى أعرف ذلك : أعرف أنه ما من موضع للشكوى من شدة الدكتور إلا كان معه موضع لرقته وسماحته !

مسز ثريل : ذلك حق . ولكننى أرجو أن « يقصقصك : » أنت أيضاً بعض الشيء .

دكتور جونسون : كلا . لست أرجو ذلك . وإننى ليسوءنى أن أفوه بكلمة تؤلم مسز بيرنى .

مسز بيرنى : لو أنك فعلت لآلمتنى الكلمة فوق ماتتخيل ، وتخاذلت تحتها على الأثر !

مسز ثريل : إننى لأذكر يا سيدىَ أيام رحلتنا إلى بلاد الغال كيف كنت تحاسبنى على ملاطفة بعض الناس ، وكيف كنت تقول لى : ما هذا الثناء الذى تغدقينه على كل أحد وعلى كل شيء ؟ . . وعندئذ كنت أقول لك : لا عجب يا سيدى . . إننى حين أصاحبك أنت والسيد ثريل وكوينى ينبغى أن أؤدى واجب أربعة فى تحيات الملاطفة . . .

وكذلك قالت السيدة كلمتها الأخيرة ، وأفهمت الدكتور أنها ينبغى أن تؤدى عنه وعن صاحبيه واجبهم جميعاً فى الملاطفة ، لأنهم يقصرون فيه !

* * *

وتستغرق هذه الأحاديث أكثر من ألف ومائتى صفحة ، يثق القارئ أنه لا يفتح صفحتين منها تخلوان من مساجلة حية من هذا القبيل ، تقترن فيها دقة المعنى بلباقة التعبير .

ولا نريد أن ندير المقال كله على مائدة واحدة من موائد هذه الأحاديث ، فهاهنا مائدة أخرى لعلم من أعلام الأدب العالمى فى القرن التاسع العشر ، هو لورد بيرون الشاعر المشهور ، وهاهنا حديث له يشبه هذه الأحاديث بعض الشبه فى العبارة وفى الموضوع .

سأله بعضهم : هل كانت لادى بيرون تحبك ؟ فقال بغير تردد : كلا !

ثم قال : « لقد كنت الزى الشائع – الموضة – يوم التقت بى لأول مرة ، وكان المشهور من سمعتى أننى شاب ماجن وأننى من أبطال الأناقة ومبتدعى الأزياء . وكلا هذين الوصفين محبب إلى الفتيات . وقد تزوجت بى غروراً منها ، لاعتقادها فى نفسها القدرة على إصلاحى وترويضى . وكانت فى بيتها طفلة مدللة غيوراً بطبيعة هذا التدليل ، ثم زادتها الدسائس ممن يحيطون بها غيرة على غيرة . . ولم

يكن أسهل من جواز الخديعة عليها ، لأنها كانت تؤمن بعصمتها فى الدراية بطبائع الناس ، وكانت تفهم كلمة مدام دى ستايل فهماً مشوباً بالحماقة ، إذ كانت تعتقد أن ساعة اللقاء الأولى تغنى فى معرفة الإنسان ما لاتغنيه خبرة عشر سنوات بعد ذلك ، وكان من دأبها أن ترسم لمن تراه صورة قلمية أو صورتين . . وقد رسمت صورتى فى صفحات بعد صفحات ، وليس فيها كلها ما يطابق الحقيقة .

* * *

وتحدث الشاعر عن زياراته لمدام دى ستايل فقال إن زائرات مجلسها كن يعتقدن فيه أنه الشيطان المجسم ، وأنه دخل المجلس ذات يوم على غير موعد ينتظر فأغمى على إحدى السيدات وجعل الآخرون ينظرون إليه كأنهم يتعوذون بالله . واستقبلته ربة الدار بخطبة قصيرة من خطب الوعظ . . فلزم الصمت ولم يزد على انحناءة خفيفة بعد الإصغاء إليها .

* * *

هذه الأحاديث وما إليها هى التى تسمى عندنا بأحاديث المائدة ، وهى اليوم مقبولة مستعادة بين المطبوعات الإنجليزية ومنها ما يعاد بعد انقضاء قرن أو أكثر من قرن على ظهوره للمرة الأولى .

وهذه الأحاديث فى آدابنا العربية أوفر جداً من نظائرها فى الآداب الأوربية ، ولكنها لا تسمى بأحاديث المائدة أو اليوميات بل تذكر فى أبواب النوادر والمسامرات أو تذكر أحياناً فيما يسمى بنوادر المحاضرات والأمالى .

ولو أننا رجعنا إلى الأمالى وما شابهها من كشاكيل العاملى والمرتضى والقالى والأصبهانى وابن عبد ربه والمقرى لجمعنا منها ما يعدل « أحاديث المائدة » الأوربية كثرة ومتعة وقيمة فى البلاغة والدلالة النفسية أو التاريخية .

ولو أننا أضفنا إليها ما نذكره ونوشك أن ننساه من نوادر أدباء الجيل الماضى والجيل الحاضر لامتلأت بها الموائد وشبع منها طلاب هذه الفاكهة أو هذا الغذاء ، وإنهم لكثيرون .

ويخيل إلينا أننا نصنع خيراً إذا تعوضنا بهذه الموائد عن أمثال ذلك اللغط الذى يحمل عنوان الأدب كذباً فى لغتنا ويسأمه قراء الغرب فيعرضون عنه ليلتمسوا العوض منه على موائد الأدباء الغابرين .

* * *

حديث آخر الزمن *

الدنيا خلصت !

كنت فى أسوان منذ خمس سنوات أو ست ، وكان الأوان أوان الموسم الشتوى فى إبانه ، وأما بالنسبة إلى السنة الدراسية فقد كان أوان البعثات التى يشترك فيها الطلاب والتلاميذ من الجامعات إلى المدارس الابتدائية ، ومنها مدرسة عالية أو متوسطة للبنات .

وسمعت تعليق الجدات الموقرات على بعثة البنات بصفة خاصة ، فلم تسمع إحدى الجدات الموقرات بنبأ هذه البعثة الأنثوية إلا سألت هذه الأسئلة جميعاً مع اختلاف الترتيب :

هل لهؤلاء البنات أهل ؟

وهل حضر معهن أحد من أهلهن ؟

وما هى أعمارهن ؟ وهل يجرى ذلك كثيراً فى بلاد البحاروة . . أى بلاد الوجه البحرى بعبارة أخرى ؟

ولما علمت الجدات الموقرات أن هؤلاء البنات لهن أهل ، وأن أحداً من أهلهن لا يصحبهن فى هذه الرحلة ، وأن أعمارهن تتراوح من الرابعة عشرة إلى العشرين أو ما فوقها بقليل ، وأن هذه الرحلات كثيرة فى بلاد « البحاروة » . .

ولما علمت الجدات الموقرات بذلك كله دقت كل منهن كفاً بكف وقلن جميعاً إحدى كلمتين :

آخر زمن . . !

أو الدنيا خلصت !

وخلصت أكثر من مرة

فلا أدرى ماذا تقول هؤلاء الجدات الموقرات إذا سمعن برحلة البنات الثلاث ، فيما بين العشرين والخامسة والعشرين من العمر ، بغير دليل ولا زميل ، من إنجلترا إلى فرنسا إلى إسبانيا إلى أفريقية الشمالية من أقصاها إلى أقصاها ، إلى مصر إلى السودان إلى أفريقية الوسطى فأفريقية الشرقية ؟

* أخبار اليوم ٣ / ٩ / ١٩٥٥ .

لا يكفى أن تكون الدنيا « خلصت » مرة واحدة ، بل ينبغى أن تكون خلصت وخلصت مرات وراء مرات .

هؤلاء ثلاث بنات . لا يعرفن أحداً فى البلاد التى زرنها ، ولا تعرف إحداهن صاحبتيها فى الواقع . . لأن صاحبة الفكرة فى الرحلة جمعت صاحبتيها بطريق الإعلان فى الصحف . واختارتهما من نيف وثلاثين طلباً بعد النظر والحادثة . .ثم أسلمن أنفسهن للمقادير .

ماذا تعلمن لهذه الرحلة التى استغرقت أكثر من مائة يوم بين العمار والخراب ؟ بل ماذا قصدن فى الحقيقة أن يتعلمن ؟

إنك لتطالع قصة الرحلة من الفاتحة إلى الخاتمة فلا ترى فيما عدا المسير وشد الرحال وصور الآثار والرمال ، غير التعرف إلى بضعة رجال ، وبقيت خرافات التاريخ بعد شهود مواقعها كما كانت على البعد ، حتى حمام كليو باترة ومارك أنطونى فى مرسى مطروح . . !

وكل ما نشرنه فى كتبهن من الصور معلوم مسبوق إليه ، وكل ما روينه من أخبار البلاد قد أصبح اليوم بعض حوادث الصحف اليومية ، ولا جديد فى الأمر غير المصادفات الشخصية التى صادفنها مع بعض الرجال .

وإحدى دواعى التسلية فى هذه الرحلة أن صاحباتها لا يكلفن أنفسهن وصف امرأة واحدة فى الطريق بالجمال أو الجاذبية . ولا يذكرن وصف الجمال والجاذبية إلا فى اللحظة التى يتحدثن فيها عن رجل . . ولا سيما الرجل طالب القبلة أو طالب الزواج .

بغير مصباح ديوجين

فبغير مصباح ديوجين العتيق وجدن عدة رجال والفيلسوف الخائب لم يعثر على رجل واحد بمصباحه فى رائعة النهار ، لاختلاف الشروط واختلاف العينين .

وجدن فى إسبانيا الفتى المغامر الذى تطارده الدولة ولكنه مع هذا الخطر الذى يلاحقه قد عرض نفسه للموت من أجلهن ، لأنهن يجهلن مداخل الطريق ومخارجها بغير هدايته .

ووجدن التونسى « على » ذا العينين السوداوين ، وفارق إحداهن وعيناه (السوداوان) تغرورقان بالدموع ، وهى كذلك لا تخفى دموعها فى موقف الوداع .

ووجدن فى القاهرة يونانياً يصحب إحداهن إلى الصور المتحركة ، ووجدن مصرياً يحرسهن على طريق الهرم ، لأنها أيام انتخاب ومظاهرات !

ووجدن فى أسوان كنزاً من الرجال بين مصريين وغير مصريين ، وأحدهم شاب أرمنى بعينين وطفاوين . وملامح ساحرة تحكى ملامح الرب المعبود بين قدماء الإغريق إله الربيع « أدونيس » .

أما المصريون الأسوانيون – ولهن الشكر – فوصفهم على الجملة أنهم على حظ نبيل من الوسامة Nobly Handsone .

وأما فى الخرطوم فقد حضرن وليمة تضم بين ضيوفها ثمانية أجناس غربية وشرقية ، وحمدت إحداهن ربها لأن المصرى الجذاب – من المصريين اللذين لقياها فى الفندق – هو الذى صحبها إلى النزهة دون المصرى الآخر ، وكان ذلك المصرى الجذاب مهندساً فى مصلحة الرى المصرية .

والرحالات المغامرات – والشهادات للحق – منصفات .

لأنهن ذكرن « المضايقات » التى تعرضن لها فلم يخصصن بها المصريين أو الشرقيين ، بل شملن بها الأوربيين من كل وطن وطبقة وسن ، على مدى الطريق .

والمضايقة الكبرى التى يروينها عن مصر بدأت على الحدود وانتهت فى الإسكندرية ، ولم تتكرر بعد ذلك إلا مرة واحدة فى الخرطوم .

تذاكر

تزودت كل منهن للرحلة بمائة وخمسين جنيهاً من لندن إلى لندن كرة أخرى عوداً على بدء بعد ثلاثة أشهر وأسبوعين !

وذهبن فى مرسى مطروح ليركبن القطار ، فاتخذن مقاعدهن فى الدرجة الثالثة من باب القصد ، وباب المشاهدة والاستطلاع .

وجاءهن التذكرى – أو الكمسارى – فدعاهن إلى الدرجة الثانية وقال لهن إنه لا يتقاضاهن زيادة فى الأجر على هذه النقلة .

وقادهن إلى ديوان مخصص (للحريم) .

قالت كاتبة الرحلة : ولكنه ترك القطار وجلس معهن ، ولاح عليه أنه ينوى أن يطلب منهن ثمناً لهذه الدعوة لا يقدرن على بذله ، وتحققن من ذلك حين استطرد من التحيات ، غير المباركات ، إلى وصف مسكنه بالإسكندرية ، وعنده فيه سرير يسع أربعة بالراحة !

ولم تكتم المؤلفة أنهن ذهبن معه إلى ذلك المسكن ، ولكنهن ذهبن جميعاً فى وقت واحد للفرجة والاستطلاع ، وانتظرن ريثما خلع ملابس المصلحة وتهيأ للخروج معهن بملابس النزهة ، ثم أرشدهن إلى فندق يونانى استأجرن فيه حجرة واحدة ، وما يشعرن بعد الفجر إلا وصاحبنا يفتح الباب ويزعم أنه نسى صحيفته بالأمس . ثم يميل إلى إحداهن ويسر إليها كلاماً لم تسمعه صاحبتاها ، ولكنها قالت لهما بعد ذلك إنه سألها قبلة فرفضتها .

ومن صور البنات الثلاث يتبين أن صاحبنا التذكرى هذا صاحب ذوق وإن لم يكن صاحب عفة . . لأن البنت التى سألها القبلة من بينهن أجمل البنات . !

وعلى هذا ،أو من أجل هذا فيما يظهر ، يتكرر فى الرحلة ثناء الرحالات المغامرات على المصريين .

قالت المؤلفة : « لقد حذرونا مراراً من المصريين وقالوا لنا إنهم قوم يبغضون الأوربيين وسيصيبنا منهم بعض الكدر لا محالة ، فكان من أسباب الغبطة الزائدة عندنا أننا وجدنا كل واحد على درجة من اللطف تفوق المألوف خلافاً لما توقعنا» .

ووصلن إلى « إدفو » بأعلى الصعيد ، فتلقاهن بها موظف فى مصلحة الرى على أهبة الزواج ، وسرهن أن يستمعن منه تفاصيل العادات المرعية فى الخطبة والمعيشة البيتية ، وقالت له إحداهن : « أتعلم ؟ إنه لينعشنا أن نراك ونرى أبناء وطنك قوماً لطافاً على خلاف ماسمعنا وأنذرنا قبل السفر » .

وقهقه الشاب مستغرباً وهو يقول لهن : « يا له من كلام متناقض غريب . .فقد كنت أفهم دائماً أن الإنجليز هم الذين يوصفون بالجفوة ويستكبرون أن يتحدثوا إلى أحد من غير الإنجليز » .

وكل الرحلة على هذا النمط .

وختامها فى إفريقية الشرقية زواج واحدة من البنات الثلاث ، وكان يمكن أن تتزوج صاحبتاها أيضاً لو أرادتا الزواج .

رحلة أخرى

والرحلة الأخرى تسلك الطريق نفسه مبتدئاً من ليبيا ومنتهياً على شواطئ البحر الأحمر بين أرتيريا والحبشة والسودان واليمن وعدن وسائر هذه الأقاليم .

كاتبها لم يقصد الرحلة ولكنها فرضت عليه بأمر الدولة الإيطالية ، لأنه كان طبيباً من أطبائها فى طرابلس ، ثم أرادت أن تنتفع به فى مستعمرات البحر الأحمر ، لمعرفته باللغة العربية وعادات « الوطنيين » .

واسم هذا الطبيب ألبرتو دى براجنو Pirajno . واسم كتابه « ترياق الثعابين » لأن رقية الثعابين ضرب من الطب الوطنى يصادف أمثاله فى صناعتهم ، وفيها إشارة مجازية إلى الثعابين الآدمية ، وما أكثرها فى هذه الرحلة التى لاتفرغ من الخبائث والسموم ومنها سموم المخدرات والمهربات .

ما أكثر الثعابين وأكبر الأذى من بعضها فى قصص هذا الطبيب !

وواحد من هذه الثعابين مضحك لا تنتهى أخباره من مضحكات إلا لتتصل بمضحكات أخرى من نوع آخر ، وأول من يضحك ضحاياه ، وأول من يضحكون منه أنفسهم بعد شفائهم من سم اللذعة التى قلما تميت .

ذكرنى هذا الخبيث بالمحتال العالمى « بلسامو » الذى حير الأوربيين منذ قرنين وشاع العجب منه حتى كتب عنه فيلسوف البطولة « توماس كارليل » صاحب كتاب الأبطال الذى ترجم إلى اللغة العربية ، فقال عنه الفيلسوف إن سره كله فى تمام خباثته . . فهو خبيث تام غير مغشوش بذرة واحدة من الطيبة أو الصدق والأمانة Perfect Scoundrel .

وكذلك خبيث هذه الرحلة : رحلة ترياق الثعابين .

فإن الشذوذ التام فى هذا الخبيث أنه فاشل كل الفشل فى كل عمل أمين ، مخلص كل الإخلاص فى كل عمل مختلس ، وبعض هذه الأعمال المختلسة تجارة الأعراض وتجارة الرقيق وتجارة السموم المخدرة ، وتجارة السياسة الدولية .

فمن أتم أنواع الشذوذ فى هذا المخلوق أنه قضى حياته لا يخلص لأحد ولايخلص فى عمل وأنه بدأ حياته طفلا مشرداً خائباً لا شغلان له غير مطاردة الطلال : طلال الفراش وأشباهها من ذوات الجناح .

وقالت أمه للطبيب إنها لا تفهم لسلوك هذا الولد الشاذ علة غير أنها ارتعبت رعباً شديداً وهى حامل به من جراء انفجار مروع .

اسم هذا الخبيث « بو غيشة الكذاب » . . وضحاياه مذكورون بأسمائهم المعروفة فى مصوع وأسمرة والحديدة وعدن وصنعاء ، ومنهم طبيب كبير تولى رئاسة مستشفى مشهور فى القاهرة ، لأن بوغيشة سئم تجارة الأعراض وانتقل من بلده إلى بلد آخر فأظهر الاستقامة والمروءة ودخل فى خدمة الطبيب الكبير فأسلمه صيدليته عند سفره مطمئناً إليه . . ثم عاد من السفر فإذا الصيدلية كلها أثر بعد عين ، وإذا بوغيشة نفسه « فص ملح » وذاب كما يقولون ، ولم يسمع به أحد من عارفيه بعد ذلك إلا وقد أرسل لحيته وافتتح له مستشفى يعالج به المرضى والجرحى ممن يصابون فى حوادث التهريب ، ويتستر وراء هذه الصناعة لإدارة حركة واسعة من حركات الاتجار بالمحظورات على أنواعها ، وتمتد تجارته إلى الشام وتركيا ومصر والحجاز .

وأثرى بوغيشة من هذه التجارة ، واستطاع أن يتصل بالسياسة الدولية فظهر فى صورة من صور الصحف السيارة يدلى بأقواله فى مسألة من مسائل الخصومات الشرقية .

مخلوق مزيف من الفرع للقدم وليست السياسة الدولية إلا إحدى « التزييفات » التى يدلنا عليها أنها تنتظم فى سلك واحد ، عند هذا الخبيث ، مع تجارة الرقيق وتجارة الأعراض وتجارة الحشيش والأفيون والكوكايين .

وحتى المخدرات لا يصدق فى تصنيفها ونسبتها إلى تجارها ، فقد باع (كربونات الصودا) مرة باسم الكوكايين مع قليل من التمويه والتغفيل ، وذكر للمشترى اسم بائعة لا تعرف عن هذه الصفقة شيئاً ، فكادت تفقد حياتها بعد انكشاف الحيلة .

وأخطر ما فى هذا الخبيث أنه خفيف الروح ، وأن صرعاه أنفسهم يضحكون ويكادون يمسكون بجنوبهم ضحكاً كلما ذكروه وذكروا كيف يقعون فى حبائله مرة بعد مرة وهو ظاهر البراءة أمامهم كأنه لم يكذب فى حياته كذبة واحدة ، وربما كان الصحيح أنه لم ينبس فى حياته بكلمة واحدة تخلو من الكذب والخداع ، ثم ينساها لساعته حين يجنى ثمرتها العاجلة ، ولا يخطر له أنه قد صنع مع ذلك المخدوع المنكوب شيئاً يمنعه أن يلقاه بعد ذلك ليعيد عليه الكرة فى براءة ظاهرةغير متكلفة . . . براءة يتمناها أصلح الصالحين أو يتمناها أقدر الممثلين . ولكنها على اليقين لا تكلفه جهداً كبيراً أو صغيراً ليتسم بها أمام صرعاه . إذ هو كما قال فيلسوف الأبطال : « خبيث تام غير مغشوش بذرة من الصدق والصلاح » ، أو هو «خبيث مصفى» كما نقول فى أحاديث كل يوم ، . وابن الحرام المصفى هو الخبيث التام والذى عناه ذلك الفيلسوف .

ما أجدر هذا الخبيث بقصة وافية تدار على حوادثه وخلائقه وعلاقاته مع الناس وأولهم صرعاه وضحاياه !

إن قصص الخيال لا تجود لنا بكثير من أشباه « بوغيشة » خيبة الله عليه .

فما خاب الملعون قط فى رأى نفسه وإن كان كله خيبة فى آراء الصالحين .

وما أضيع آراء الصالحين بين عامة الآراء !

الرحلة الثالثة

والرحلة الثالثة من قسمة آسيا الوسطى ، لأن مؤلفها بيتر ماين Peter Mayne سبق له التأليف عن القارة الإفريقية أو عن المغرب الأقصى وسمى كتابه عنه «أزقة مراكش» . . وكان فى الحق منصفاً غاية ما يستطيع الغربى أن ينصف فى الكتابة عن الأمم الشرقية ، ولا سيما الأمم التى تبتلى بمقاومة الاستعمار .

وأفريقية من جهة وآسيا الشرقية أو الوسطى من الجهة الأخرى هما القبلتان اللتان يتنافس الرحالون فى الاتجاه إليهما بعد الحرب العالمية الثانية . فلو أردت أن تمنح إحداهما الجائزة التى تستحقها بكثرة الرحلات المؤلفة عنها لما عرفت أيهما أحق بها ، أو لصنعت كما صنعت الحسناء التى احتكم إليها حافظ إبراهيم وخليل مطران وسلماها جنيهين تراهنا عليهما ليأخذهما صاحب الملامح « العجيبة » منهما . . فنظرت إليهما ملياً ثم سلمت جنيهاً لهذا وجنيهاً لذاك !

تتدفق كتب الرحلات عن آسيا وأفريقية فى الوقت الحاضر على منهج غير معهود من قبل .

ولسنا نعنى أن الغربيين لم يؤلفوا عن القارتين من قبل ، ولكننا نعنى أن الاختلاف بعيد بين سبب الاهتمام بالأمس وسببه اليوم .

فبالأمس كان هناك مستشرقون يهتمون بالتاريخ أو باللغات ، وجواسون – أو جواسيس – يرسمون الخرائط الحربية سراً ليستعان بها فى الحملات الاستعمارية أو مبشرون يشتغلون تارة بهذه (الشغلة) وتارة بتلك .

أما الاهتمام اليوم فبالقوة الإنسانية فى الشرق ، ولعل الأصح أنها فى نظر الغربيين « قوة طبيعية » تقاس وتوزن لحين الحاجة إليها ، وربما احتاجوا إليها فى هذا الحين .

أكاد أقول إنك تتناول أية رحلة عن أى بلد معلوم أو مجهول فتخرج منها بشىء طريف أو بخبر جديد ، ولا استثناء لهذه الرحلة بين الأفغان والباكستان وفى بلاد «بختونستان» على الخصوص ، وهى بلاد قبائل (الإفريدى) وما جاورها من القبائل المشهورة باسم « البافان » .

سيعلم الغربيون شيئاً لا يريدون أن يصدقوه عن منزلة المرأة فى البلاد الشرقية ، بين المدن وفى أعالى الجبال .

فالرحالة يصف لنا سيدات القبائل فى باكستان الغربية فيقول إن السيدة تحسن لقاء الضيوف كما تحسنه المضيفة الإنجليزية المهذبة فى الحاضرة الكبيرة ، ويقول عن إحداهن – زوجة زميله ميرعجم – إنها ذات جمال ساحر وذات مهابة طبيعية هائلة! Tremendous natural dignity .

ولا تنحصر « وجاهة » المرأة (الجبلية) هناك فى آدابها الاجتماعية المطبوعة ، بل توجد من النساء شاعرات يحرضن شعوبهن على قتال المستعمرين ويحفظ الرحالة الإنجليزى أبياتاً من إحدى القصائد أعجبته وجعل يترنم بها فى سيارة القافلة ، وفيها تقول العمة شيتاق : « العيون الزرق والأنوف الطوال . . أسأل الله أن يأخذهما جميعاً لديه ! » .

أما المدهش من أمر الرحلة كلها فهو قصة القبائل مع القديسين .

فلا يوجد بطن من بطون القبائل الأفريدية لا يفاخر الآخرين بمزارات قديسيه ، ويسمون المزار باسم قريب من اسمه العربى وهو « الزيارة » ويحجون إليه بين آونة وأخرى للتفاهم والتصالح وعقد الصفقات وحلف الأيمان على الوفاء .

وتشكو إحدى البطون فقرا فى القديسين فتعيرها البطون الأخرى ، وتفخر عليها بوفرة « الزيارات » لديها .

وليست وجيعة الفقر (القديسى) هنا أنه نقص فى السمعة الدينية وكفى . . كلا ! بل الوجيعة العظمى أنه نقص فى مصالح القبيلة ومرافقها فإن القوم على تلك الجبال قد استحكمت بينهم العداوة حتى لا يأمن أحدهم غيره إلا بيمين على رأس ضريح ، ولا تنعقد صفقة بينهم إلا بمثل تلك اليمين .

وكيف تنحل هذه المشكلة الدنيوية الأخروية حيث تستحكم أزمة القداسة ؟

على وجه غاية فى البساطة والسهولة ، فإن القديسين الذين تقام لهم الأضرحة بعد الممات يشتهرون بكراماتهم ونوادر صلاحهم وتقواهم وهم بقيد الحياة .

ويخرج واحد من هؤلاء الأتقياء مع رفيق السفر من أبناء القبيلة المفتقرة إلى الأضرحة ، فما هو إلا أن ينفرد به فى الطريق حتى يخطر للرفيق هذا الخاطر السريع!

أليس من المصلحة أن يموت هذا القديس على أرض القبيلة ليدفن فيها ؟ أليس فى استطاعة الزميل « الأفريدى » أن يسدى هذه اليد إلى قبيلته وعشيرته الأقربين .

بل : فى استطاعته ذلك ، وقد فعله .

فعل ماذا ؟

قتل القديس قبل أن يخرج من أرض القبيلة ليدفن فيها ويزار ضريحه فى قضاء مصالحها وإبرام عهودها وخداع المخدوعين بأقسامها وأيمانها .

ما أجهل الإنسان . . !

ما أذكاه – على ظنه – فى مساومات بنى نوعه وأربابه ومغالطاته لضميره وضمائر ذويه .

وما أشبه هذه الغيرة على القداسة عند الأفريديين بقداسات شتى عند أمم التقدم والحضارة .

وكلهم – بعد – قاتلوا أنبياء ومرسلين ، ومستغلون لكل شىء حتى قداسة القديسين!

كشكول البريد *

يرد مع كل بريد غربى طائفة من الكتب والمصنفات تحيط بكل موضوع من موضوعات الثقافة الإنسانية ويحار القارئ بينها فيما يقرؤه وما يدعه لكثرتها وإغراء كل منها بالإقبال عليه قبل غيره . ولكننا نحب هذه الحيرة ونروض أنفسنا عليها . لأن الحيرة بين مائة شىء حسن « أريح » من اليقين أمام شىء واحد ردىء وقد شبعنا زمناً طويلاً من اليقين الردىء الذى لا حيلة فيه .

ويندر فى هذه البرد أن تغلب عليها صبغة واحدة فى كل رسالة ، فإنها تجمع بين الجد والهزل والمحافظ والمجدد ومذاهب اليمين ومذاهب اليسار ، إلا أننا نحسب أو نتخيل أن البريد الأخير قد واجهنا ببعض الشذوذ عن هذه القاعدة العامة . فقد كادت الفكاهة أن تغمره عامدة أو غير عامدة ، وقد أوشكت أن تتسلل إلى الجد المقصود منه كما تسللت إلى الهزل الذى كتبه كاتبوه للضحك والتسلية من صفحة العنوان إلى صفحة الختام .

وهذه أمثلة منوعة تعفينا من أعباء الحصر والاستقصاء ، وتدل على ما تعنيه من غلبة الفكاهة على جده وهزله : من الألف إلى الياء .

كتابان من باب الجد هما كتاب فرنسى عن « تطور مصر من سنة ١٩٢٤ إلى سنة ١٩٥٠ » وكتاب « التحدى فى مستقبل الإنسان على الكرة الأرضية » .

وكتب أخرى من باب الفكاهة والتسلية وهى تاريخ الغزل والتشبيب وتاريخ الحكمة السارة فى المواعظ والأمثال ، وكلام عن الإخراج المسرحى ، وكلام عن الممثل كين ، وكتاب يقول عنوانه « اضحك معى » ويكاد جوابه كله أن يكون : لا .

١ - تطور مصر فى ربع قرن :

ألف هذا الكتاب مارسيل كولب وقدمه الأستاذ روبرت مونتانى من أساتذة الكولج دى فرانس ، وأراد به الحد فى الكتابة عن تطور مصر فى ربع القرن الذى ابتدأ سنة ١٩٢٤ وانتهى فى سنة ١٩٥٠ . . ولكنه لو تعمد السخرية بالتاريخ كله لما

* أخبار اليوم ٨ / ١٢ / ١٩٥٤ .

احتاج إلى جهد يبذله وأدلة يستند إليها غير الجهد الذى توافر عليه بعلمه وبغيرعلمه ، والأدلة التى استند إليها فى عامة فصوله وهو لا يدرى .

وهذا نموذج واحد عن مسألة نعلمها نحن علم اليقين ويعلمها معنا كل من قرأ لنا طرفاً مما كتبناه فى هذه السنوات الخمس والعشرين .

وخلاصة هذه المسألة أن « العقاد معجب بموسولينى وهتلر » وأنه ألف كتابه عن عبقرية محمد ليعقد المقارنة بين رسول الإسلام وبين أبطال الطغيان من هذا القبيل .

قال سامحه الله : « إن النبى عند العقاد صورة غالية لا فى التاريخ العربى وحده أو التاريخ الإسلامى وحسب ، بل فى تاريخ الإنسانية قاطبة . فإن هذا الدارس المثابر على دراسة جيتى ، المتشبع بآراء نيتشه ، المعجب فى حماسة وقوة بالدكتاتورية الألمانية والإيطالية ، يسرد مناقب النبى النادرة . . ويعقد المقارنة الطويلة بينه وبين نابليون وهتلر . . » .

فماذا يقول صاحبنا هذا لو لم نؤلف كتابنا عن الحكم المطلق فى أوائل هذه السنين الخمس والعشرين ، ولو لم نؤلف خلال الحرب كتابنا « هتلر فى الميزان » . .

ولو لم نقل قبل ذلك إن الناس ينظرون إلى نابليون وهو يسبح فى بحر من الدم ولا يعنيهم منه إلا الإعجاب ببراعته فى السباحة .

كنا نقول عن أديب مصرى مات قبل أوانه ، وكان من عادته مع القراء وعادة القراء معه أن يضحكوا من كل ما يقول ولو كتب فى معرض الرثاء .

كنا نقول عنه رحمه الله : « إنه لو كان يضحك قراءه قاصداً لكان أبرع من موليير فى عالم الفكاهة » .

فالحمد لله على نظراء من أدباء فرنسا لأديبنا الفقيد ، وهو سبحانه وتعالى محمود على كل شىء .

٢ - تاريخ الغزل:

ومع البريد كتاب فى فنون الغزل من أقدم عصوره إلى منتصف القرن العشرين . كتبه « تيرنر » مؤلف كتاب تاريخ الإعلان ، ولم يتعمد فيه الهزل ولكنه لم يستطع أن يهرب منه فى صفحة واحدة ، لأن الحب كله لا يخلو من الهزل ، ودع عنك الغزل الذى يجرى فى كل عصر على حسب التقاليد .

والمؤلف حريص على تبرئة الجنس البشرى من وصمة الجلافة والخشونة منذ أيام الغابات والكهوف . فلم يوجد قط ذلك العاشق الذى يخبط المعشوقة على رأسها بالهراوة ثم يسحبها من شعرها إلى منزل الزوجية بين المقاومة والتسليم .

ولم يتخلف الإنسان فى هذا الميدان عن الطير والحيوان ، فإذا كان الطير قد عرف كيف يستهوى الحبيب بالعش اللامع الوثير ، وعرف كيف يتلقى من الطبيعة حلية الريش والزينة ، فخليق بالإنسان أن يتعلم منه بالقدوة والمحاكاة إن لم يتعلم منه بالعقل والبداهة .

وعلى طول المسافة بين عصر الكهوف وعصر « ناطحات السحاب » يرى المؤلف أن الرحلة قصيرة ، وأنها تدور ثم تعود إلى حيث بدأت كلما أمعنت فى الطريق ، وأن رحلات الهوى بين المتعلمين والمتعلمات فى القارة الحديثة إنما هى رحلات على مدى خطوات من فنون الغزل تحت ظلال الآجام وبين مغاور الكهوف .

إلا ذلك الاستثناء الذى لابد منه للتقدميين .

فإن القلوب « التقدمية » لا تعرو ذلك الغزل البرجوازى الانتهازى الذى كان يعرفه الأقدمون .

وفى سهرة من سهرات الإذاعة بموسكو يسمع الناس تمثيل الغزل بين فتى فلاح فى مزرعة تعاونية وفتاة فلاحة تسوق الجرارة فى تلك النوبة . .

وتتنهد الفتاة ثم تقول : « ما أجمل العمل فى ليلة جميلة كهذه الليلة ، ومن فوقنا البدر الكامل ، وعلينا أن نجتهد كل الاجتهاد فى توفير البترول ! »

ويجيب الفتى : « إن هذه الليلة توحى إلى أن أزيد على حصتى من الإنتاج . . » . وبعد هنيهة يعود فيقول : « إننى عشقت أسلوبك فى الدأب والاجتهاد منذ اللحظة الأولى » .

ويتغنى فتيان برلين الشرقية بأنشودة يسمونها أنشودة السيارة ، ويقول فيها الفتى : « إنى أتغنى بسيارتى وكل سيور الجلد تغنى معى . لأننى الليلة سأقبل حبيبتى ، وأقول لها ثم أعيد القول فخوراً بالمزرعة رقم (ثلاثة) التى سبقت إلى الرقم القياسى جميع النظراء . . » .

ووصلت إلى اتحاد النقابات الدولى نسخة من أغانى الغزل التى يسمح بها الحزب الشيوعى فى بورما لأتباعه ، فإذا هى تحرم عليهم الغزل البرجوازى من قبيل

(أهواك !) . . وما أحلاك . . إلى أشباه هذا الهراء ، وتنظم لهم نماذج للغزل يقول الفتى لفتاته فى بعضها :

« إننى مفتون بإخلاصك وأمانتك لقضية الحزب ، وأتمنى أن نرفع الراية معاً فى هذا الجهاد » .

ولا يجمل (بالتقدمى) المخلص أن يبدأ الغزل ويختار من يخاطبها به قبل اطلاع اللجنة التى يعمل فى نطاقها ويحق لها أن توجهه فى العمل حيث كان !

٣ - الحكمة السارة:

ويمضى مع تاريخ الغزل تاريخ آخر للحكمة العالمية من أقدم أصولها .

والحكمة العالمية من أقدم أصولها هى حكمة الأمثال التى يقال عنها إنها يخف وزنها ويثقل معناها ، كأنها الجواهر والفصوص .

وقد سماها صاحب هذه المجموعة بالأمثال السارة فلم يخدع القارئ بهذه التسمية ، فكل مثل من أمثالها الألفين يضحك بمفارقاته ويسر السامع بحلية من حلى البلاغة فى التعبير ، ويدهشه لأنه لا يدرى حين يسمع المثل السار أو المثل السائر : هل اقترب من شئ بعيد أو ابتعد من شىء قريب .

قالت الإنسانية بجميع لغاتها ، أو قال آدم بجميع لغاته ، فما من مثل هنا إلا وهو تكرير لكلام قيل فى لغة أخرى ، وهكذا قيل :

إذا أردت أن تنسى شيئاً فاذكره

رنين الدرهمين فى الكيس أعلى من رنين المائة

من يضحك من نفسه أولا لن يضحك منه أحد

مداراة المعرفة خير من إظهار الجهل

كلما صعد النسناس ظهر احمراره !

الكسالى أقل الناس فراغاً

تسقط الشجرة حيث تميل

أحبب جارك ولا تهدم جدارك

القط الذى يطرد الفيران . والقط الذى يقبضها يستويان !

الحماقة فى الوقت المناسب عقل

أكثر الأشياء لها مقبضان

إذا عثر اللسان نطق بالحقيقة

الخطيب الأخير ينال يد العروس

الثروة تعب فى الجمع ، وهم فى الصيانة ، وخوف من الضياع

الكلب لا يعوى إذا قذفته بعظمة

أسأل الله الصديق الذى يطلعنى على عيوبى فيغنينى عن الأعداء

السمعة الحسنة تذهب بعيداً ، والسيئة أبعد !

الثوب جديد . أما البالى فهو الثقوب

كل ثناء يموت ما لم تطعمه

الكأس الأولى هى الغالية

أصدق الصدق ما تنكر سماعه

الماء الملوث يطفئ النار كالماء الطهور

المال الخفيف يحملك والمال الثقيل تحمله

كسوتنا الأخيرة فى الدنيا بغير جيوب !

لا تستر عن الصديق ما يعرفه العدو

زيادة فى العجلة نقص فى السرعة

وكلما قالت الإنسانية قولا خالداً نفيساً ، قالته بهذا الأسلوب ، ولم تقله بأسلوب التلغراف أو التليفون .

وكلما عز على الإنسانية أن تتعب فى سبيل الحكمة مستها الحاجة إليها . .

وهكذا هى اليوم تطلب فى كل تعليم علماً بغير دموع ، وحقوقاً بغير واجبات وأمثالا ملبسة بالسرور .

٤ - واضحك معى:

وكتاب من هذه الكتب غاية فى الجد على الرغم من جامعيه ومرتبيه ، ولهذا يطلبون من قرائه أن يضحكوا ولا يتركونهم وشأنهم يضحكون متى شاءوا ويبكون إن طاب لهم البكاء ، وقد يكون البكاء ألزم من الضحك بعد قراءة الكثير من «مضحكات» الكتاب .

اسم الكتاب « اضحك معى » . .

ومؤلفوه طائفة من أعلام الفكاهة السيارة فى الصحافة الأمريكية والإنجليزية وصاحب الرأى والذوق فى اختياره علم آخر من أعلام الفكاهة السيارة فى العصر الحاضر ، يسمى دافيد لانجدون . . إن كنت قد سمعت به أيها القارئ الضحوك .

إحدى فكاهاته : رجل نجا من الموت بالسم وبالرصاص وبالسلاح الأبيض ، وعاش بعد ذلك متشائماً منقبضاً لأنه اعتقد أن القدر لم (يكلف خاطره) أن ينجيه من الموت مرات إلا لأنه يدخر له فى جعبته مصيراً أصعب من الموت !

ومن فكاهاته : رجل إنجليزى يحدث صاحبه عن أبيه فيقول له إنه اشترك فى حرب (الزولو) . .

فيسأله الصديق فى أى الجانبين ؟

وملحة الملح من نوادر الكتاب قصة الرحالة الذى اتهمه الإفريقيون « بالعين الحاسدة » وألقوا عليه التهمة فيما أصابهم وأصاب مزارعهم وأشجارهم وأنعامهم من العلل والأوبئة وخسائر الجدب والكساد .

ولا بد من الجزاء وهو معلوم .

فإن لم يذعن للجزاء فعليه أن يحصل على شهادة البراءة من كاهن القبيلة ، ولا يعطيه الكاهن هذه الشهادة إلا إذا مر « حافياً » فوق الحجارة المحماة على مشهد من المصابين والمصابات ، ومن شهود الذمة والأخلاق .

والمتهم – ماك جريجور – فيه نظر

وكاهن القبيلة فيه نظرات

وعيون أبناء القبيلة فيها أنظار كثيرة مفتوحة لكى ترى أو لا ترى على حسب المقام .

وقد برئ المتهم من جرائمه كل البراءة ومر على الحجارة المحماة حافى القدمين ، فلم يصبه سوء .

مر على الحجارة المحماة حافى القدمين ولكن على الدراجة . .

ولم يرد فى العلم القديم أن الدراجة تعصم المتهم من قضاء الأرباب .

هذه هى المضحكات التى استطعت أن ألبى بها طلب السادة مؤلفى الكتاب أو طلب السيد الذى يدعونا إلى الضحك معه !

وأحسبنى قد استخدمت الكرم الشرقى فى تلبية ذلك الطلب العسير . . !

والرأى عندى أن يقنع الغربيون من الشرقيين فى هذا العصر بطلب واحد : وهو طلب البكاء . .

طلب غير مستجاب بغير تكليف !

٥ - الجمهور معصوم:

والسؤال السريع الذى يسبق القارئ إلى لسانه : معصوم من ماذا ؟ أو معصوم من أى شىء ؟

فقد تكون العصمة من الصواب هنا أقرب العصميين ، ولكن المخرج الكبير «أدولف زيوكر» لم يقصد هذا حين كتب ترجمة حياته وتحدى بها المخرجين قائلا : إن الجمهور لن يخطئ أبداً .

تجربة خمسين سنة قضاها هذا الفنان المجرى فى إخراج روايات المسرح والصور المتحركة ، وعمل فيها بفراسة الشرقى لأن أبناء المجر محسوبون فى القارة الأمريكية من الغربيين وعمل فيها بتنظيم الحساب أو تنظيم الإحصاء لأنه قوام كل عمل فى العصر الحديث ، وجاء فى الحق بخلاصة نفيسة لتجارب الفن المسرحى فى القرن العشرين ، ومدارها كلها الاهتمام بالفنان والاهتمام بالكاتب معاً ثم الاجتراء على التكاليف بغير مبالاة .

وكانت أولى مجازفاته إطالة الوقت للرواية المعروضة على اللوحة البيضاء ، فقد كان المظنون فى الجمهور أنه لن يصبر على منظر من مناظر الصور المتحركة أكثر من دقائق معدودات .

وكانت له مجازفات كثيرة فى التعاقد مع بعض الممثلين والممثلات على مئات الألوف من الريالات ، فلم يخسر فى مجازفة واحدة منها لأن الجمهور خيب رجاءه وأخلف تقديره ، أو أخلف حسابه على القول الصحيح .

وقد تتبعنا المخرج الكبير فى معظم صفحاته وخرجنا من الكتاب ونحن على ثقة من موافقته على شريطة واحدة : أن يكون عنوان الكتاب « الجمهور لا يبخل أبداً . . » .

فلم يثبت زيوكر نتيجة واحدة كما أثبت هذه النتيجة من تجاربه الطوال .

رسالة الكاتب*

بماذا يعنى الكاتب ؟

هل يعنى بطلب الشهرة ؟ هل يعنى بطلب الكسب ؟ هل يعنى بإتقان عمله ؟ هل يعنى بأداء رسالته ؟

وصل البريد الأدبى الأخير وفيه مناقشات من هذا القبيل لمناسبة اجتماع المؤتمر الثامن والعشرين من مؤتمرات أندية القلم العالمية .

ومن الآراء السديدة التى اطلعنا عليها رأى القائل إن هذه الأغراض لاتتناقض حتماً لأن كبار الأدباء الأقدمين – من طبقة هوميروس وشكسبير– كانوا يطلبون الكسب بمرضاة السامعين ويبدعون مع هذا غاية الإبداع .

ويصح هذا الرأى كلما أمكن الجمع بين هذه الأغراض بغير تناقض ولا اضطرار إلى تقديم غرض منها على سائرها ، ولكن ماذا يكون الرأى إذا حصل التناقض كما يحصل فى كثير من الأوقات ؟

الرأى الصواب فيما نعتقد أن يكون الغرض المقدم هو الغرض الذى يجعل الكاتب «كاتباً» وبغيره لا تتحقق له صفة الكتابة ولا يتيسر له أداء رسالة من رسائلها .

فالطبيب – مثلا – لابد أن يكون طبيباً قبل النهوض بأمانته الإنسانية ، بالغة مابلغت من القداسة والوجوب .

والكاتب كذلك لابد أن يكون كاتباً قبل نهوضه بواجبه الخاص . لأن الواجبات العامة مشتركة بين الكتاب وغير الكتاب ، مطلوبة ممن يحمل القلم وممن لا يحمله ، ولامحل للبحث فى الرسالة الكتابية ما لم يكن هنالك كاتب وما لم تكن هنالك كتابة . والكلام هنا للجارة العزيزة .

والجارة العزيزة هى الطائفة الأمية التى تحسب أن الكتابة فن لا يحتاج إلى أداة ، أو أنها فن يحتاج إلى أداة يملكها كل من ملك أصبعه .

* الأخبار ٣٠ / ٧ / ١٩٥٦ .

الأدب والتمدن *

كلمة الأديب فى أصل معناها العربى تقابل كلمة « المتمدن » فى الاصطلاح الحديث .

ومن هنا ، فيما نعتقد ، سميت الوليمة « مأدبة » لأنها عنوان أدب المجالسة والاجتماع ، كما يقال فى الغرب « رجل صالون » و « سيدة صالون » بهذا المعنى :

وإنى على ما فىَّ من عنجهية ... ولوثة أعرابية لأديب

مما يفهم منه أن الأدب عندهم نقيض الجلافة ، وأن الأديب على هذا الاعتبار هو الإنسان المصقول .

وأصل التأديب على ما يظهر من مادة الكلمة مأخوذ من التهذيب والتهديب ، وكلاهما يفيد التنقية والتطهير من الأشواك والأهداب ، ويقال هذبت الشجرة وهدبتها أى قطعت زوائدها وجنيت ثمرتها ، ولا خلاف فى أن حروف كلمات «التأديب والتهذيب» مما يقع فيه الإبدال الكثير ، إذ ليس أكثر من الكلمات التى تروى بالذال والدال أو بالهمزة والهاء .

فالتأديب إذن هو التهذيب أو التهديب ، بلفظه ومعناه .

ولهذا يخطر لنا أن كلمة Literature of medicine لا تترجم بالأدب الطبى لأن الكلمة الأوربية مأخوذة من مادة الحرف أو الكتابة : وليست مأخوذة من مادة التهذيب والتهديب ، وإنما تترجم بالكتابة الطبية كما قال أستاذ الجيل لطفى السيد للدكتور سليمان عزمى فيما روته آخر ساعة .

فإذا كان لابد من اصطلاح خاص فالدكتور عزمى نفسه قد وفق لهذا الاصطلاح قبل عشر سنوات على ما نذكر ، حين أصدر كتابه القيم وسماه : « على هامش الطب » . فإن هذا الاصطلاح يمكن أن يطلق على الكتابة التى تقرب الطب إلى الجمهور أو تلم بتواريخ الأطباء ، والنظريات الطبية لا تدخل فى صميم العلم والعمل الذى يزاوله الطبيب دون غيره .

وإذا ترجمت عبارة أدب الطب بهوامش الطب لم يلتبس على السامع ما يقصد منها ، ثم يتكفل الاصطلاح بعد ذلك بالتحديد والتأكيد .

التخصص كما أفهمه

أما هذه فهى – حقاً – مشكلة عالمية من مشكلات العصر الحاضر بجميع أجياله ، وعلى رأسه جماعة العلماء والأدباء .

* الأخبار ١٤ / ٩ / ١٩٥٩ .

يكتب الآن قادة الأفكار الغربيون فى مشكلة « التخصص » التى شطرت ثقافة العصر إلى شطرين أو جعلت الثقافة الإنسانية ثقافتين ، لا تغنى إحداهما عن الأخرى ولابد منهما للإنسان الصحيح ، ولا نقول الإنسان الكامل ، فإنه غير موجود !

فالثقافة اليوم تنقسم إلى علمية وأدبية ، بين عالم لا يعرف شيئاً عن هوميروس وفرجيل ، وأديب لا يعرف شيئاً عن تكوين المادة ونظام الأفلاك .

وكلاهما نصف إنسان . . .

أما الإنسان « الصحيح » فهو الذى يعرف العلم ولا يجهل الأدب ، أو يعرف الأدب ولا يجهل العلم ، وإن لم يبلغ فيهما معاً مبلغ التخصص والامتياز .

وكنا قبل الحرب العالمية نقول عن الرجل إنه مهندس وأمى ، أو إنه طبيب وأمى ، أو إنه معلم وأمى ، أو إنه أمى وهو يحمل فى جيبه وفى رأسه أرفع الشهادات .

فاليوم يخافون فى الغرب من هذه الأمية التى تنتشر بين العلماء كما تنتشر بين الجهلاء ، ويكاد يحصى السكان جميعاً من يحصيها بشطريها ، فلا يستثنى منها غير فضلات الأرقام فوق الملايين .

ويعترف كتاب الإنجليز بسبق الأمريكيين والروس لهم فى تعليم الثقافة العربية ، والمعلومات المشتركة بين طوائف القراء من العلميين والأدبيين على السواء ، ويستدلون على ذلك برواج الألوف من كتب العلم والأدب فى أيدى الجمهرة العامة من الجنسين ، ولكن نقاد المجلات الأدبية يشعرون ببعض العزاء فى عناية الشاب الإنجليزى بالرياضة والفروسية ، ويحسبون أن العناية بالموسيقى مع الإقبال على لعب الكرة بأنواعها والسباق بأنواعه تعويض حسن لنقص العناية بالمعلومات العامة ، وإن لم يكن أحسن تعويض ولا أنفع تعويض .

ونزيد على رأى هؤلاء النقاد أن الملاحظة من أساسها تحتاج إلى تعديل كبير .

فنحن لا نعتقد أن « التخصص » ممكن على أتم وجوهه مع الانقطاع لعلم واحد أو دراسة واحدة . فقد يكون من لوازم « التخصص » أو من لوازم التفوق فيه أن يفارق الدارس حدوده وينظر إلى الأفق الواسع من حولها . وقد يجهل داره من يعيش فيها طول عمره ولا يدخل داراً غيرها ليعرف منها مواضع الزيادة والنقص فى داره ، فلا مناص لإتقان التخصص من شىء غير التخصص يظهره على محاسنه وعيوبه ، ويظهر إلى جانبه تخصصاً آخر يقاس عليه .

لقد قيل إن « المتخصص » نصف إنسان ، وإن الإنسان الصحيح هو الذى عرف الأدب ولا يجهل العلم أو يعرف العلم ولا يجهل الأدب .

فقل ولا حرج عليك : كلا . . ولا هو نصف إنسان .

وإنما هو كما قال نيتشه : أذن كبيرة أو لسان طويل تمشى به قدمان .

العـــرب

– ما هو دور علمائنا وأدبائنا وشعرائنا فى غزو الفضاء ؟

« وماذا تفعل سيادتكم لو قالوا لك إنك ستصعد إلى القمر بعد أربع وعشرين ساعة ؟ »

مدرسة العروة الوثقى الإسكندرية — عبد الرازق فهمى المهداوى

فى وسع الطالب النجيب أن يطمئن إلى درجات علمائنا وشعرائنا فى هذا الامتحان العسير .

بل فى وسعه أن يطمئن إلى دور أمتنا كلها فى هذا الامتحان ، لأن القدرة الأولى والأخيرة فى مسألة غزو الفضاء إنما هى قدرة المال الكثير الذى لا غنى عنه للعلماء ولا للأمم ، ولو كان جميع أفرادها من العلماء المخترعين المبتدعين المبدعين .

ألا يرى الطالب النجيب أن السباق فى ميادين الفضاء محصور بين أغنى الأمم وأكبرها عدداً وثروة . وهم السوفييت والأمريكيون ؟

أيظن أن العلماء والمخترعين لا يوجدون فى بلاد كسويسرا والدنمارك والسويد والنرويج وإيطاليا وألمانيا وفرنسا وهولندا والبرتغال . .

أيظن أن تلك البلاد لا يوجد فيها الطيارون المستعدون لركوب الطائرات إلى أبعد مجاهل الفضاء ؟

إن بريطانيا موطن « رذوفورد » إمام مباحث الذرة لم ترصد بميزانيتها شلناً واحداً لحساب المركبات الفضائية ، لأنها لا تملك الثروة التى كانت تملكها بالأمس ولا تأمن حكومتها أن يثور عليها شعبها إذا أنفقت من محصول الضرائب ما يكفى هذه التجارب والمحاولات .

ولو كانت هذه التجارب والمحاولات من المشروعات التجارية لما تأخرت إلى هاتين السنتين ، لأن الوسائل العلمية والصناعية قد كانت موفورة معروفة لكل تجربة أو محاولة تدعو إليها أعمال السفينة الفضائية ، ولكن شركات التجارة لا تقدم على

عمل كبير النفقات مجهول النتيجة قبل أن يتحقق أصحاب الأسهم من جدواه ، ولا بد من الانتظار بالتجربة والمحاولة إلى أن تتولاهما الدول التى تقدر عليهما ولا تحسب حساب الربح والخسارة فى مسائل الدفاع والهجوم ، وما زالت الولايات المتحدة تدرج نفقات هذه التجارب بين تكاليف وزارة البحرية وميزانية الدفاع على الإجمال ، وما تزال التجارب المسموح بها فى ميزانيات الدول الصغيرة مقصورة على الصواريخ النووية وأسلحة الذرة بأنواعها المختلفة ، ولا ينتظر أن تتحمل هذه الميزانيات أعباء علم الفضاء وصناعة الفضاء فى نطاق أوسع من نطاق المعامل الكيمية ومدرجات المعاهد العليا بالجامعات .

ولو كانت لبلادنا ثروة تسمح لها بإنفاق ألوف الملايين على تجارب غزو الفضاء لما شككنا فى إمكان علمائنا وصناعنا أن يدخلوا هذا السباق على أمل كبير فى النجاح . فقد سمعنا كبار الخبراء الغربيين يقولون إن الجندى المصرى الذى قل أن يحسن القراءة العربية – فضلا عن الأجنبية – كان أقدر على استخدام الرادار أثناء الحرب العالمية الكبرى من جنود البريطانيين والأمريكيين ، وقد رأينا بأعيننا جهلاء الريفيين يحاولون صناعة المذياع وإدارة المكنات وإصلاح الساعات وهم غير مستعدين لذلك بغير عدة النظر والمراقبة والخبرة بالبسائط من آلات الريف . وشاهدنا منهم من يقود الباخرة بين جنادل الشلالات ولا سابقة له فى هذا الفن غير النظر إلى طاحون البخار هنا أو مكنة الزورق هناك .

فالحيلة الآلية قديمة عندنا ، واشتغال الأقدمين هنا بهندسة الحياض وأدوات الرى ومراقبة الأجرام السماوية ميراث نافع جداً فى العلوم الرياضية والصناعات الرياضية على التعميم ، وقد كان الإغريق يسمون الهندسة بعلم قياس الأرض لأنها كانت تستخدم لهذا الغرض عند قدماء المصريين ، وكان أفلاطون يوصى تلاميذه بأن يتقنوا « الحساب » كما كان يتقنه أولئك القدماء ، وما أقرب « الرياضة » على اختلاف أبوابها من هذه الصناعات وهذه التجارب والمحاولات ، ولو صعدت إلى عنان السموات .

سؤالك ياسيد عبد الرازق سؤال تلميذ يحك أنفه لأساتذته العلماء والأدباء ، كأنه يقول لهم : أين شطارتكم يا هؤلاء وأنتم ترهقوننا بالأسئلة وتضنون علينا بالدرجات وتستطلعون ما نعلم وما لا نعلم من هذه المخترعات وتلك المعجزات ؟ .

لكن هؤلاء الأساتذة يستطيعون أن يحكوا لك أنفك وأنوفهم كلما سألوك : أتدرى كم ثروة الروس والأمريكيين وكم ثروتك – ثروة بلادك – على غاية ما وصلت إليه ؟

أتدرى ؟ . . . لا !

إذن حاسب على درجاتك فى الجغرافية والحساب .

أتدرى ؟ . . نعم !

إذن لا تسأل ذلك السؤال وأنت تحك أنفك وتبتسم ابتسامة الشماتة بعلمائك وأدبائك ، بل تسأله إن شئت وأنت تدعو الله أن يرزقنا الملايين وألوف الملايين ويسلكنا بين عباد الله الطائرين المحلقين ، ويعلمنا الرفق بعلمائنا المساكين ، عند تلاميذهم الشياطين .

أما سؤالك الآخر عمن يسألنى عن الرحلة غداً إلى القمر فجوابه للراحل الكريم : مع السلامة وإلى اللقاء ، وإنا منتظروك على رجاء ، وحبذا لو صدق الرجاء ، فى الهواء وما فوق الهواء .

حيوان .. لابس *

لا يدرى الإنسان كيف يهتدى إلى تعريف نفسه ، والعجب فى الأمر لمن يعرفها ياترى ؟ هل تراه يعرفها لفائدة الأحياء الكثيرة من غير بنى آدم وحواء ؟ هل نراه يعرفها لفائدة الآدميين ، وإذا وقع اختلاف فى التعريف والاعتراف فعلام يدل هذا الاختلاف ؟

على أن الواقع أن التعريف كله عمل من أشق الأعمال الفكرية ، وإن شئت فقل إنه كلام أشق من جميع أنواع الكلام .

التعريف صعب ولو كان لشىء معروف غير مجهول ، وخذ مثلا لذلك تعريف «الصحافة» وهى من الشهرة بحيث نستخدمها فى الإعلان عن الأشياء التى نريد أن يعلمها من يجهلونها ، فماذا تقول فى تعريف الصحافة أو الصحيفة ؟

ورقة لنشر الأخبار ؟

فما القول فى الصحيفة التى تنشر مع الأخبار أقوالا أخرى فى العلوم أو الفنون أو السياسة ؟

نضيف إذن أنها تنشر الأخبار وقد تنشر معها هذا وذاك وذلك من المنشورات الصحفية ، ولكننا لا نستوفى الإحصاء إلا إذا سردنا الموضوعات ثم قلنا فى النهاية « وغيرها وغيرها » مما هو مجهول أو غير مذكور .

وهل ترانا قد عرفنا الصحيفة بعد هذا الإحصاء وهذه الإشارة إلى غيرها وغيرها وغيرها ؟

كلا . فهنالك الفرق بين النشرة التى تذاع مرة واحدة أو الكتاب الذى يجمع تلك الموضوعات وبين الصحيفة الدورية ذات المواعيد المنتظمة ، وهنالك الفرق بين اليوميات والشهريات والأسبوعيات ، فإذا أجملتها كلها فى كلمة « المواعيد » فإنك لا تستطيع أن تحصر الفوارق بين ماتحتويه بحسب هذه المواعيد أو بسبب العلاقة بين الوقت والموضوع .

* الأخبار ١٠/٦/١٩٥٥ .

تلك بعض الصعوبات فى تعريف الصحيفة فكيف بتعريف الإنسان وما اتفق فى الصفة قط إنسانان اثنان ؟

قيل إنه حيوان ناطق ، وقيل إنه حيوان اجتماعى ، وقيل إنه حيوان ضاحك ، وقيل فى شىء من السخرية إنه حيوان لابس .

ويرى أهل البصر بالتعريفات أن « الحيوان الضاحك » أصدق هذه التعريفات ، لأن الضحك شىء لا يفهمه الحيوان ولا يتعلمه ، وقد ينطق بالألفاظ وقد يفهم بعض الفهم على نوع من الأنواع .

أما « الحيوان الأجتماعى » فتلك صفه لا تخص الإنسان وحده ، وكثير من الأحياء العليا والحشرات يعيش فى جماعات .

وسخر بعض المعلقين على التعريفات كما سخر المنطقى الضاحك الذى عرف الإنسان بأنه حيوان لابس . فسأل أولئك الساخرون منكرين ومنتقدين : وما القول فى سكان خط الاستواء ؟

قال صاحب التعريف : القول فيهم أنهم فى حمام دائم ، وتعريفنا لا ينسحب على الإنسان فى حالة الاستحمام . . وكذلك يحدث مع الحيوان الناطق أنه يكف عن النطق أحياناً بجميع معانيه ، وكذلك يحدث مع الحيوان الضاحك فإنه قد يكف عن الضحك وقد يجاوز الكف عن الضحك إلى البكاء .

قل إذن إن الإنسان حيوان لابس .

وقلها لتزيد الإنسان تعريفاً إلى تعريفات ، أو تزيده تنكيراً إلى تنكيرات . فلا ضير أن يكون التعريف وسيلة إلى التنكير ، لأننا سنسمع قريباً أن هذا « الحيوان اللابس » إنما يلبس ليراه الناس لا ليستتر أمامهم كما هو المفهوم .

روح الملابس وروح الشرائع

ففى أوائل القرن الماضى كتب الفيلسوف الأيقوسى توماس كارليل رسالة وافية فى هذا الموضوع ، خلاصتها أن الإنسان يلبس للزينة ، ولا يلبس للدفء أو للحياء ، وأن الناس لو أنهم طولبوا بخلع الثياب ، لغضب ذوو اللهو والمجون منهم قبل ذوى المروءة والحياء .

قال بلسان صاحبه الذى يروى عنه : « إنه يستطيع أن يؤلف كتاباً عن روح الملابس كما ألف مونتسيكيو عن روح الشرائع ، لأن الملابس تدل على الأمم كما

تدل عليها شرائعها ، وهذه وتلك لا تأتى مصادفة ولا تأتى عرضاً وإن تبدلت الأزياء والألوان ، ولكنها تعبر عن الذوق والفكر والعقيدة ، وتختلف من عصر إلى عصر على حسب اختلاف الأجيال المتعاقبة فى أذواقها وأفكارها وعقائدها ، وصفوة كلامه ما قدمناه من أن الإنسان يظهر بملابسه ولا يستتر ، وأنه يبدى روحه وعقله حين يستر ما يستر من جسده وأعضائه .

السباعيان

ومن طريف أمر هذا الفيلسوف الأيقوسى عندنا أنه قد تكفل بنقل فلسفته إلى اللغة العربية أخوان فاضلان ، هما الأستاذ محمد السباعى رائد الترجمة الحديثة فى مصر ، والأستاذ طه السباعى وزير التموين الأسبق . فنقل السباعى الكبير كتاب الأبطال الذى تكلم فيه الفيلسوف عن النبى العربى وجعله نموذجاً للنبوة ، ونقل أخوه كتاب فلسفة الملابس ، كأنه يعلم بوحى الغيب أنه سيتولى أمر الملابس ويدبر توزيعها على المصريين فى أشد أزماتها العالمية أثناء الحرب الماضية .

قال الفيلسوف فى بداية فصوله الأولى : « إن الإنسان لا يجرى مع الصدفة العمياء لا فى سن الشرائع ولا فى خياطة الملابس ، بل ما تزال اليد العاملة مهتدية بنور العقل تنقاد بزمامه وتذعن لأحكامه ، وإنك لتجد فكرة فنية كامنة فى كل ما يبتكر من الملابس على اختلافها وكل ما يبذل من المساعى فى سبيلها ، وما جسم المرء وملابسه إلا البقعة التى عليها والمواد التى بها يشاد ذلك الهيكل الرائع الفخم: شخص الإنسان .

فسواء أرأيته يرفل فى البرود المسبلة الأذيال ، ويختال فى رقاق النعال ، أم رأيته يسمو بالقلنسوة العالية من خلال الأوشحة والمناطق والأحزمة والقراطق ، أم أبصرته منتفخاً فى الأطواق المنشاة ، والحشايا المشمعة ، أم ألفيته قد شد نفسه وقسمها أجزاء متميزة وخرج إلى الملأ مجموعة من أربعة أعضاء – كل ذلك يتوقف على نوع هذه الفكرة الفنية ، وهل هى إغريقية أو غوطية ، قديمة أو غوطية متأخرة أو حديثة مولدة . . ثم تأمل أى معان جليلة تنطوى عليها ألوان الملابس ، فمن الأسود القاتم إلى الأحمر الوهاج أى خصائص روحانية وصفات نفسانية يكشفها لك اختيار الألوان . فإذا كان التفصيل ينبيك عن طبيعة الذهن والقريحة فإن اللون ليخبرك عن طبيعة القلب والمزاج ، ولا بدع فهذا كله يجرى بين الشعوب كما بين الأفراد

بفعل الأسباب والمسببات . . ذلك الفعل الذى لا ينقطع عمله ولا ينكر أثره وإن كان فى غاية التعقيد والالتباس ، فما من حركة من حركات المقص إلا وهى منظمة مدبرة بمؤثرات دائبة عاملة ليست بالخفية ولا بالمبهمة على ذوى البصائر الجلية والأفهام النافذة » .

ونحن فى أوان الربيع

ونحن الآن فى أوان هذه الفلسفة لأننا فى منتصف شهر أبريل وفى أوائل فصل الربيع ، وقد سبقنا الطبيعة بأسبوعين أو ثلاثة فظهرت الألوان والأشكال على الثياب والأزياء قبل أن تظهر فى الحدائق والبساتين .

وخلق الإنسان من عجل . .

وصدق الله العظيم . .

ولم يكذب القائلون إن الإنسان حيوان لابس ، ولا كذب القائلون إنه يلبس ليظهر ولا يلبس ليتوارى عن الأنظار .

كلا . . ولا كذب كارليل حيث قال إن عقائد الناس وأفكارهم تظهر من ملابسهم وأزيائهم كما تظهر من شرائعهم وقوانينهم ، فإن ملابس العصر الحديث ولا شك لم تكن معقولة قبل عشرة قرون ، وإن ملابس العصور الأولى ليست معقولة ولا مقبولة لو ظهر بها الناس فى هذه الأيام .

والأمر – بعد – مرتبط بالنفس الإنسانية لا بالأنسجة والأنوال ولا بالفبريقات والدكاكين .

قبل ألف سنة كان الإنسان يلبس ليُخفى جسده ويظهر مركزه الاجتماعى ، وكان من السهل أن تنظر إلى إنسان من الناس فى عرض الطريق فتعرف من شارته أنه رئيس أو نبيل أو تاجر أو وجيه حضرى أو وجيه فلاح ذو ضياع وكراع » .

كان الإنسان يخفى جسده لأنه يؤمن بنجاسة الجسد أو يؤمن بأنه مصدر الخطيئة وآلة الرذيلة .

فلما اختلف الاعتقاد واختلفت النظرة الاجتماعية إلى الأفراد والطبقات ظهر هذا الاختلاف فى الملابس والأزياء ، فلم يبق اليوم من ينكر الجسد لأنه جسد . أو من يخفيه لأنه ينبوع الرذائل والخطايا ، ولكنهم ينكرونه لقبحه ويسترونه لغلظته

وضخامته أو لنحافته وهزاله . فهى مسألة فن وذوق وليست مسألة اعتقاد ومفاضلة بين الأجساد والأرواح !

وفلسفة الملابس اليوم أنها أقرب إلى الطبيعة الفطرية مع أننا قد غرقنا فى الصناعة إلى رءوسنا .

إن الإنسان فى عصر الصناعة أقرب إلى ورق التين وجلود الحيوان التى تترك أطراف الجسد عارية مكشوفة فى الرجال وفى النساء .

ولو كانت المسألة مسألة صناعة لكانت هذه المفارقة إحدى المضحكات ، ولوجب أن يكون الأقرب إلى أوراق التين آباؤنا وأجدادنا الذين عاشوا قبل عشرة قرون وقبل عشرين وثلاثين .

ويدل على هذا أيضاً أن الأمم القديمة التى كانت لا تدين بنجاسة الجسد ولا تلوثه وحده بوصمة الرذيلة لم تكن تثقله بالثياب كما فعل أبناء القرون الوسطى .

والناس اليوم أقرب إلى المساواة فى الحقوق الاجتماعية ، فهم كذلك أقرب إلى المساواة فى الأزياء والأكسية وأصعب على الناظر تمييزاً بين طبقات منهم وطبقات . إلا أن تكون المسألة مسألة ذوق وعادة فلا تقاس بالمظاهر والشارات ولكنها تقاس من الباطن بالتفكير والإحساس .

وقد كانت للأزياء والأشكال وطأة شديدة على كل طبقة غنية أو فقيرة فى القرون الغابرة ، فلا يتصرف الإنسان بلبسه حسب مشيئته ، ولا يزال حكمهم على الملابس حكم المثل السائر بين أولاد البلد عندنا . . « كل ما يعجبك والبس ما يعجب الناس » .

إلا أن الواقع اليوم أن سلطان العرف يسمح للفرد ببعض الحرية أو بكثير من الحرية إلى جانبه ، فلا نعجب إذا رأينا مئات الشبان والشيوخ بغير طرابيش أو رأيناهم بالقمصان دون « الجاكتة » والصدار ، أو رأيناهم يختارون من الألوان ما كان محرماً على كل أحد أو كان الجمع بينه بمثابة الخروج على المجتمع والابتذال .

وقد تدرج الناس من ملابس السهرة السود إلى ملابس السهرة البيض ، ومن الردنجوت الأسود إلى الردنجوت الرمادى فى عشر سنين أو أكثر من عشر سنين ، وعلمنا منذ سنوات أن أحد الأمراء ضرب كاتباً فى دائرته لأنه رآه يلبس الطربوش القصير كأنه يجترئ على حرية الاختيار بعدما تقرر مكان الطربوش الطويل باختيار

الأمراء وذوى السلطان ، فإذا كان لاختلاف الأطوار فى هذه الأمور دلالة مفهومة فكل دلالة لها تقول لنا إن روح الملابس وروح الشرائع بمنزلة واحدة فى تفسير الأحوال الاجتماعية وتفسير الأخلاق والأذواق والحقوق .

توحيد الأزياء

وتوحيد الأزياء ينبغى على هذا أن يكون توحيد معان لا توحيد أشكال وألوان .

فلا ضير من عشرة ألوان للقميص ، أو أربعة ألوان للحذاء ، ولا من الطول حيناً والقصر حيناً فى هذه القطعة ، أو فى تلك من اللباس ، وإنما الضير كل الضير أن يكون لهذا الاختلاف معنى السيادة من جانب ، ومعنى الحرمان من جانب آخر ، وهذا هو الذى يلاحظ الآن على غير قصد من اللابسين وصانعى الملابس ، فليس الاختلاف هو المهم ، بل المهم هو معنى الاختلاف ودلالته على الفوارق والحدود ، وعلى المزايا والحقوق .

ويبدو لنا أننا إذا نظرنا هذه النظرة لم نجد أن التفاوت بيننا فى الأزياء أكثر من التفاوت بين الأمم الأجنبية والأمم الأوربية على الخصوص ، لأن طربوشنا شىء واحد وقبعاتهم عشرات ومئات تشترك فى اسم القبعة ولا تشترك فى الشكل ولا فى اللون ولا فى المادة التى تصنع منها ، وقد تكون أشكال الملابس الريفية والحضرية عندهم أزياء مختلفات كاختلافها بيننا أو أبعد من هذا الاختلاف .

أفيون الفلاسفة

إلا أننا مع هذا الفضل العميم الذى أسبغه الناس على الثياب فيما تقدم ، أو أسبغته الثياب عليهم ، لم يدر بأخلادنا أنها ترتقى إلى مقام القداسة الصوفية التى ارتقى بها إليها الفيلسوف الحديث ألدوس هكسلى فى رسالته الأخيرة عن « أبواب الإدراك » وتحدث فيها عن تجاربه للمسكالين ذلك العقار الذى نسميه بحق « أفيون الفلاسفة » بعد ما قرأناه من وصفه ومن إطناب الفيلسوف فى مزاياه !

وقبل أن نلم بأطراف من تلك المزايا نجمل تاريخ هذا العقار وبيان آثاره كما جمعها ألدوس هكسلى من مصادره العلمية ، ولا ننسى أنه من أقطاب المفكرين ذوى الثقافة العلمية فى العصر الحديث .

يؤخذ المسكالين من نبات الصبار الذى يضع أبناء الأقاليم العليا فى الصعيد فصيلة منه إلى جوار المقابر لأنه رمز للرى والغضارة .

وقد اهتدى إليه الهنود الحمر وقال بعض السياح الأول من الإسبان إنهم يأكلون جذوره ويسمونها البيتول ويتناولونه كالقربان المقدس فى الصلوات الجامعة .

ويؤخذ من التحليل الكيمى أنه يشبه « الإدرنالين » فى مادة تركيبه ، ولم يتقرر حتى الساعة أنه من المخدرات أو المنومات وقد يتعب من يتناوله إذا كان قد أصيب حديثاً باليرقان أو كان منزعج الأعصاب ، ولكن أثره يزول بعد ساعات ولا يعقب بعده حنيناً إليه أو عادة كعادة التدخين والشراب .

وأراد هكسلى أن يسلم نفسه لأحد العلماء المختصين بتجاربه من الوجهة النفسية ، فجربه فى ربيع السنة الماضية واستعان المختصون أثناء التجربة بآلات التسجيل والتصوير فقيدوا كل كلمة فاه بها وصوروه فى حالات متعددة ، وأعادوا عليه ما قاله وأطلعوه على تسجيلاتهم بعد انتهاء أثره ليسترجع فى ذاكرته جملة إحساسه به أثناء التجربة .

وهذه خلاصة تلك الآثار كما شرحها فى رسالة أبواب الإدراك .

فأول آثاره أنه يجلو الحس فينظر من تعاطاه إلى الأشياء كأنه يراها خارجة من يد الخلاق لأول مرة ، لم تبتذلها ألفة المشاهدة ويحسبها الناظر كتلك الموجودات التى سميت لأبينا آدم يوم رآها فى هذه الدنيا أو يوم رآها فى فردوس النعيم .

ومن آثاره أنه يمحو الإحساس بالزمن المتقطع وبالأمكنة المتباعدة كأنها تتصل اتصالا واحداً فى دوام لا يقبل التعاقب والانفصال ، وهى حالة أشبه بالحالة التى يتغنى بها أصحاب التجليات حين يتكلمون عن الأبد وعوالم الخلود .

ومن آثاره ذلك الحس المباشر أو المعرفة الباطنية التى لا تتوقف على تسمية الأشياء بكلمات اللغة ولا على تحليلها وتشريحها بأساليب المناطقة والعلماء التجريبيين ، وأقرب المحاولات العلمية للوصول إلى هذه المعرفة المباشرة هى محاولة المدرسة النفسية المسماة بمدرسة الجشتالت ، وقد أشرنا إليها فى مقالاتنا الأخيرة وفى بعض مؤلفاتنا وقلنا إنها تحاول أن تعود العقل إدراك الحقائق جملة واحدة غير متقطعة ولا متفرقة بأجزائها وتفصيلاتها .

أما مكان الأنسجة فى هذه التجربة الحسية النفسية فالكلمة التى سجلت على الفيلسوف عندما عرضت عليه محسوسة ومصورة تغنى عن الإسهاب فى وصف شعوره ووعيه حين هتف قائلا : هكذا ينبغى أن يكون النظر . . وهكذا ينبغى أن ينظر الناظر وإلا فلا . .

ولعل هذا راجع إلى اجتماع الحواس كلها لتمييز النسيج بألوانه وظلاله ورسومه وملمسه مع التأمل فى دقة نسجه ودقة المصور فى نقله وإحساس الناظر مع المصور ببراعة هذا فى اشتغال حسه عند النقل بكل ما يراه ويتأمله ويجتهد فى محاكاته .

قال الفيلسوف ما مؤداه إن البشرية المسكينة لن تستغنى عن الحلم بما فوق الحس أو ما وراءه ، ولن يتسنى لكل آدمى أن يرتفع بالرياضة الروحية والفكرية من عالم الزمان والمكان إلى عالم الأبد والخلود ، فإذا تهيأت له مادة لا ضرر فيها تنقله حيناً بعد حين وراء عالم الشقاء فربما كانت هذه وسيلة عصر المادة للخلاص من قيودها العمياء ، لأنها وسيلة مادية يحسها ولا يشك فيها ، وقد يتعود - بفضل المسكالين - أن ينظر تلك النظرة العالية إلى الأشياء الحقيرة فيؤمن إيمان المتصوفة بالجمال الحى السابغ على كل شىء ، وينفى القبح عن الوجود كله ، دون أن يتعاطى المسكالين . !

وماجربناه نحن

ونود من القارئ ألا يسرع إلى الابتسام والاستخفاف وألا يصرف الموضوع بقول القائل المتعجل إن هى إلا تخريفات مساطيل !

إن مقام ألدوس هكسلى أجل من أن يقابل بهذه السخرية الرخيصة ، وإن دراساته الصوفية ، شرقية وغربية ، لأوسع من أن تضاف إلى حساب الجهل والشعوذة أو حساب التخريف وسهولة التصديق .

وما من حالة وصفها الفيلسوف إلا وهى حالة طبيعية تطيف بالأذهان فى ساعات التأمل بغير عقار من قبيل المسكالين أو غير هذا القبيل .

ومن أمانة التجربة أن نقول إننا نمر بهذه الحالات دقائق معدودات من فترة إلى فترة ، ونحفظ منها ما وصفناه شعراً أو نثراً فنراه الآن مطابقاً لما وصفه هكسلى فى رسالة أبواب الإدراك .

ففى قصيدة الفجر الأول نصف الموجودات كما طلع عليها أول فجر وشوهدت فى أول صباح :

من رأى أول فجـــر   فى سماء الكون لاحا
كما تجلى من صباح   قبل أن يدعى صباحا

وفى مقدمة « مجمع الأحياء » نصف الشعور بما وراء الألفاظ والتحليلات لنفهم الحياة « بلغتها ولا نحاول التعبير عنها بلغتنا ، وأقرب ما نشبه به تلك اللغة المبدعة أنها وحى ناطق بالمجاز كامن فى العقول والقلوب والأرواح والحواس تكتبه بطريقة تصويرية كطريقة المعبرين عن المعانى برموز الكتابة المصورة فتنبت شجرة لتقول النضرة والنماء ، وتنشئ ربيعاً لتقول الحب والرواء . . . بل تبدع كوناً لتقول الله والسماء ، أو هى تصور ولا تلفظ ونحن نفسر ولا نقرأ . . » .

وقلنا قبل ذلك فى وصف اللحظة الأبدية : « . . . اذكروا أنكم تتمتعون فى كل لحظة من لحظات عمركم بالفرق السحيق بين العدم والحياة . اذكروا أن روح الوجود تغلب فيكم كل لحظة من تلك اللحظات من هاوية العدم إلى قلب الدنيا النابض الجياش » .

* * *

ولسنا ننقل هذه الأمثلة لندعى أننا متصوفون متنسكون ، فما خطر لنا قط أن ندعى هذه الدعوى وما يعنينا من التجربة كلها إلا أن نقرر أنها تجربة واقعية طبيعية وأنها ليست بمقصورة اليوم ، أو من قبل ، على عقار المسكالين ولا ما يشبهه من العقاقير ولا على المتصوفين المحترفين ، وإن بعض العلماء الطبيعيين من أمثال أدنجتون ليتحرجون جداً من رفض هذه التجارب بظهر الكف ولا يزالون على رجائهم أن تضاف تجارب الحس المباشر إلى تجارب المنطق والتحليل .

ونعود من حيث ابتدأنا إلى الملابس تحية لألوان الربيع . فنقول إن هذا الإنسان حيوان لابس ، وإن روح الملابس كروح الشرائع كامنة وراء الظواهر والمحسوسات ، وإن هذه المصنوعات البديعة تحكى لنا كثيراً عن الطبيعة بل عما فوق الطبيعة . . فلسفة نسمعها اليوم من العلماء والحكماء ، ولا ينفرد بها خبراء الملامح والأعطاف وعشاق الأشكال والأزياء .

أكل العيش *

حضرت اليوم جلسة المجمع اللغوى لأول مرة فى السنة المجمعية الجديدة ، وهى تبدأ فى الأسبوع الأول من شهر أكتوبر .

وقبل أيام كان زائر أديب من فلسطين يسألنى : هل تعتقد أن المجمع أدى رسالته ؟

وجوابى على هذا السؤال دائماً أن رسالة المجمع باقية ما بقيت اللغة العربية ، فليست هى من الرسائل التى تؤدى ويقفل عليها الكتاب .

قال : « وهل عمت مصطلحاته كما ينبغى ؟ » .

قلت : و « كما ينبغى » هذه أيضاً لا يسأل عنها المجمع ، لأن هناك أناساً كثيرين ينبغى أن يصنعوا شيئاً فى خدمة اللغة العربية ، وليس للمجمع سلطان التنفيذ ولا يحسن أن يكون له هذا السلطان لأنه بمثابة الإكراه على استخدام الكلمات ، وأقل من وسيلة التنفيذ وسيلة النشر وقد خلت منها يد المجمع ، لأنه لا يملك مطبعة ولا يملك « الشخصية » المستقلة فى المعاملة .

وأعتقد أن المصطلحات تروج أحياناً لأسباب غير أسباب الصحة والدقة والسهولة ، ومما جربته فى ذلك أننى استخدمت كلمة « المصارفة » لما يسمونه قطع العملة ، وكلمة « المشاعية » لمذهب كارل ماركس ، وكلمة « المداورة » لانتهاز الفرص ، فلم تصب كلمة المصارفة رواجاً مع سهولتها وصحتها ، وراجت كلمة الشيوعية بدلا من المشاعية ، وتغلبت كلمة المداورة على كلمة الانتهازية .

وعلى هذا يقاس فى أسلوب وضع المصطلحات وحظها من القبول .

كذلك كان سؤال الأديب الفلسطينى وكذلك أجبناه ، ولكل سؤال جواب كما يقال .

ففى إحدى جلسات مجلس الشيوخ سأل السيد عبد المجيد الرمالى :

ما هى وظيفة المجمع ؟ -

قلنا : أكل عيش !

---

* الأخبار ١٥ / ١٠ / ١٩٥٤ .

تكريم الفن *

أنعم بذكـراك نروبهـا فـتـروينا ... يا راحـلا لم يزل يحـيى ليـالينا

هذا مطلع قصيدة جيدة قرأتها اليوم للشاعر صالح جودت فى إحياء ذكرى «الريحانى» ، أحسن فى كثير من أبياتها ولا سيما قوله :

يا حكمة من دموع الناس تضحكنا ... حينا ، ومن ضحكات الناس تبكينا

وقوله :

يا صاحب الصوت خشناً فيه حشرجة ... كـأنه من ضـمـيـر الغـيب يأتينا
كم اهتـززنا على إيقـاعــه طربا ... وكم سـمـعناه أحلى من أغـانينا
فـمـا تهـدج إلا من مـشـاعـرنا ... ولا تحـشـرج إلا من مـآسـينا
ليـس الغناء الذى يرضى غـرائزنا ... إن الغناء الذى يرضى أمـانينا

والمناسبة كلها مناسبة كبيرة الدلالة فى تاريخ الحياة القومية وتاريخ القيم النفسية فى جملتها .

مضى الزمن الذى كان فيه الشاعر يرثى الفنان أو الفنانة فيقول :

رحـمـة العـود والكمنجـا عليـه ... وصـلاة المـزمـار والقـانون

ونحن فى الزمن الذى يرثى فيه الفنان بعد وفاته بسنوات ، فيعطى حقه من التقدير بميزان الإعجاب الصادق والثناء الصريح . .

ويبدو لنا أن العالم كله يتطور فى تقدير هذه القيم الفنية ولا ننفرد نحن الشرقيين بالنظرة العتيقة إليها ولا بالنظرة الحديثة التى تهتدى إليها الإنسانية بعد الروية والمقارنة . .

منذ ثلاثين سنة قدم شارلى شابلن إلى فرنسا فاستقبل فيها استقبال الأبطال ودهشت الصحف الأدبية نفسها لما سمته إسرافاً فى الحفاوة فتساءلت قائلة : «ترى لو كان الطبيب فنسان صاحب لقاح التيفوس بين الجموع المهللة لشارلى شابلن أما كانوا يدفعونه عن الطريق ويعرضون عنه ليقبلوا على بطلهم العزيز » ؟

* أخبار اليوم ١٠ / ٤ / ١٩٥٤ .

وكتبنا يومئذ تعليقاً على هذه الدهشة فقلنا : « إننا نرى شيئاً من العدل فى هذه الأطوار التى تشاهد فى الجماهير ، فإن الممثل الهزلى لن يظفر بعد موته بكثير ولا بقليل من الإعجاب الذى هو حقيق به ، فمن الإنصاف أن يكافأ فى حياته هذه المكافأة على إضحاك الناس وتسرية همومهم وتنشيط عقولهم وقلوبهم ، وما هو بالعمل الحقير ولا القليل الشأن فى هذه الدنيا المفعمة بالشواغل والهموم . . » .

ثم قلنا : « إن هناك ضرباً من الاقتصاد الشعورى غير مقصود فى حركات الجماهير من هذا القبيل . فالطبيب فنسان يفيد بعلمه ، ولو لم يلق هتافاً وتهليلا . أما شارلى شابلن فهل تراه يسخو بمواهبه بغير الهتاف والتهليل ؟ أو هل يمكن التفريق بين الوقت الذى يضحك فيه الناس والوقت الذى يهللون له فيه ؟ »

إن الصحيفة الفرنسية لا تكرر اليوم ملاحظتها الأولى لو تكرر الاحتفال بقدم شارلى أو أحد من نظرائه على اللوحة الفضية . .

وإن الشاعر العربى لا يستكثر اليوم رحمات الله على الفنان الراحل قناعة برحمة العود والقانون . .

إن القيم النفسية تتقدم من تصحيح إلى تصحيح ، وإننا لنعتقد أن تقرير الفنان أصدق المقاييس التى تقاس بها الحرية والكرامة الإنسانية ، فإننا نكرمه بمحض شعورنا واختيارنا ووحى أذواقنا وأفكارنا ولا نكرمه خضوعاً لسلطان الجاه والثروة أو سلطان العصبية والأسرة القوية .

وتلك علامة من علامات الخير . .

ومن علامات الجمال . .

رأى فى الإملاء *

قرأت اليوم – كما قرأت سائر أيام الأسبوع – كلاماً عن الإصلاح الذى قيل إنه سيحل المشكلات جميعاً فى كتابة اللغة العربية ، لأنه يعلم الناس أن يكتبوا الحروف كما ينطقونها فى جميع اللغات .

وكل ما قرأته حتى الآن يزيد مشكلات الكتابة ويوقع اللبس والاختلاط حيث لم يكن من قبل لبس ولا اختلاط .

هل ننوى من اليوم أن نقول « رمى يرمى رمياً ورجا يرجى رجياً وصفا يصفى صفياً » إلى آخر هذه الألفات أو هذه الياءات .

إن كنا ننوى ذلك فقد انحلت المشكلة وتساوت الألف والياء ، تكتبها ألفاً أو تكتبها ياء كما تشاء .

ولكننا لا ننوى ذلك ولا نستطيع إذا نويناه ، لأنه يجر إلى الخلط الذريع بين أبواب الفعل وأوزان المشتقات ، وكلها مرتبط بأساس تكوين اللغة العربية لأنها لغة اشتقاق تقوم على أبواب الفعل الثلاثى التى لا وجود لها فى جميع اللغات الهندية الجرمانية وهى اللغات التى تكتب بالحروف اللاتينية ويدعونا إلى التشبه بها من ينسون الفارق الأصيل بين لغة الاشتقاق ولغة النحت والتركيب .

ومتى كان إلغاء الفوارق بين أبواب الفعل الثلاثى ضرباً من المستحيل فالخلط بين ألفها ويائها يزيد المشكلات ولا ييسر صعوبة واحدة من الصعوبات التى تيسرها القواعد المتبعة لأصغر التلاميذ .

كل ألف رابعة فما فوقها تكتب ياء لأنها ياء فى المضارع أو المصدر كما نفهم من النطق البسيط للأفعال والمصادر .

فنحن نقول اكتفى يكتفى واستوى يستوى واهتدى يهتدى واعتلى يعتلى ، ولا يوجد لسان عربى يصعب عليه أن يجرى على هذه القاعدة فى تصريف الأفعال .

ونحن نقول كذلك تعالى تعالياً وترامى ترامياً وتداعى تداعياً ولا يصعب على أحد أن يأتى بالمصدر بداهة وارتجالا على هذا القياس .

---

* الأخبار فى ١٨ / ٦ / ١٩٥٦ .

وهكذا نرى أن القاعدة هنا تزيل اللبس وتحفظ للأفعال والمشتقات أبوابها وأوزانها ، ولا توقعنا فى الخلط بين كل ألف وكل ياء .

ومن « تسليات » الإصلاح الذى يستطيعه عندنا من لا يستطيع أن يفك الخط قول بعضهم إننا يجب أن نكتب كما نتكلم ليفهم عنا جميع القراء ما نقول :

وعلى هذه القاعدة يقول ابن القاهرة « بقه » ويقول السورى « تمه » ويقول الصعيدى « خشمه » إذا تكلموا عن الفم .

فكيف تكتب الفم فى كتاب يقرؤه القاهريون والسوريون وأبناء الصعيد .

وعلى هذه القاعدة يقول السورى « أجره » ويقول المصرى « رجله » ويقول السودانى « كراعه » . . فكيف نكتبها فى كلام يقرؤه هؤلاء ؟

ونريد أن نعرف كيف نكتب الشمس والسماء والثورة والتوراة ؟

ينبغى أن تكتبها كما تنطق : « اششمس وسسماء ، وثثورة وتتوراة ؟

. . فيزول الإشكال بحمد الله . . لأننا لا ننطق الألف واللام فى هذه الكلمات كما ننطقها فى كلمات القمر والبلد والجمل والبرتقال .

بسيطة الحكاية يا حضرات المصلحين .

بسيطة جداً والله العظيم ، وعلى المقسم كفارة القسم إن كان لابد من قسم أو تكفير . .

عام الكف وعام الكفء *

نعم ، ومن بحره كما يقول أولاد البلد ، وإن كنا بهذا الاستطراد ننتقل من محيط السياسة إلى محيط الأدب وخفاياه « السياسية » أيضاً تصحيحاً للتاريخ . .

كتب الأستاذ مجد الدين حفنى ناصف فى العدد الماضى من « أخبار اليوم » يقول إن بطل القصة التى رويناها عن حفنى ناصف مع السيد توفيق البكرى هو إبراهيم المويلحى ، الذى كان كاتباً خاصاً للخديو إسماعيل .

ونحن يسرنا أن يخرج حفنى ناصف من هذه القصة التى تناقلها المعاصرون عنه ، ولكننا نستبعد أن يكون إبراهيم المويلحى هو بطلها المدبر لها كما قال الأستاذ مجد الدين ، فإن إبراهيم المويلحى مات فى يناير سنة ١٩٠٦ وقضى السنة السابقة لها وشطراً من أواخر سنة ١٩٠٤ عليلا ملازماً للفراش كما هو مسطور فى سيرته ، ولم يكن فيما قبل ذلك بثلاث سنوات أو أربع على صلة بالقصر أو بالسيد البكرى تمكنه من زيارة هذا فى داره تنفيذاً لمقاصد الحاشية الخديوية ، ولو رجع الأستاذ مجد الدين إلى تاريخ المساجلات الأدبية السياسية فى تلك السنوات لاستبعد مثلنا علاقة المويلحى فى ذلك الحين بالقصة التى ذكرناها . .

عام الكف وعام الكفء وعام الكفر

ففى سنة ١٩٠٢ التى سميت بعام الكف كان المويلحى مغضوباً عليه من القصر وحاشيته ، وكان الشيخ على يوسف لسان حال القصر ينشر فى المؤيد مقطوعات الأدباء عن الإهانة البالغة التى أصابت المويلحى الصغير فى حانة « دارتاكوس » ويتناول فيها المويلحى الكبير كلما تناول المويلحى الصغير .

وخلاصة « عام الكف » هذا أن فتى من أبناء الأعيان يسمى محمد نشأت صفع محمد المويلحى فى تلك الحانة وشتمه وشتم أباه ، ففتح المؤيد صفحاته لأخبار تلك المناوشة وأقوال الشعراء فيها ، وكان الشاعر المشهور إسماعيل صبرى موتوراً من المويلحيين فتكفل بالقسط الأكبر من المقطوعات الشعرية ، وتتابعت الأبيات والنكات تحت عنوان عام الكف فترة طويلة ، ومنها لسان المويلحى الصغير :

*أخبار اليوم ١٩ / ١٢ / ١٩٥٣ .

إلهى إنى من ذنوبى تائب ... ومن فعلى الممقوت يارب خائف
فلا تجعل اللهم صدغى صحيفتى ... إذا نشرت يوم الحساب الصحائف

وعلى لسان الأب صاحب « مصباح الشرق » :

نهشت الناس أعراضاً ومالا ... ونلت من البرية ما اشتهيت
وكم صفع الجرىء أديم وجهى ... فما خفت الهوان وما ارعويت
أأترك لذة الفتن اعتباطا ... وأهجرها وفى « المصباح » زيت

ومما قيل فى تلك الكف التاريخية :

إن كفا كفت أذاك عن النا ... س لكف جديرة بالفخار

ولم تزل العداوة ناشبة بين المويلحى وحاشية القصر إلى سنة ١٩٠٤ وهى السنة التى تزوج فيها الشيخ على يوسف صاحب المؤيد بالسيدة صفية بنت السيد عبد الخالق السادات على غير علم من أبيها ، وقد كتب العقد بدار السيد البكرى فى الخرنفش ، وطلب السيد السادات من المحكمة الشرعية إلغاءه لأن « على يوسف » غير كفء للزواج من سيدة شريفة .

فطار المويلحيان فرحاً بهذه الفرصة السانحة . وانتقما من عام الكف بعام الكفء ، فلم يبق أديب ناقم من المؤيد وصاحبه إلا اشترك فى هذه المناوشة وجدد بعضهم ما قيل فى مثل هذا المعنى من الشعر القديم كقول الشاعر العربى :

سلام لله يا مطر عليها ... وليس عليك يا مطر السلام
فطلقها فلست لها بكفء ... وإلا يعل مفرقك الحسام

وظل الشيخ على يوسف ينادى باسم الشيخ « مطر » عدة شهور . . .

ولم تهدأ المعركة حتى تمت حلقات هذه السلسلة « بعام الكفر » تعليقاً على خطاب مصطفى كامل للخديو عباس ، معلناً فيه اعتزال القصر وقطع الصلة بمن فيه . .

أما قبل عام الكف وعام الكفء وعام الكفر فقد بلغ من سخط الخديو على إبراهيم المويلحى أنه أمر أحمد شفيق (باشا) عند سفره من الآستانة فى شهر سبتمبر سنة ١٩٠١ أن يتصل برجال الضبطية التركية لاعتقال المويلحى وحجزه عن السفر ، وأشار شفيق إلى هذه الحادثة فى مذكراته فقال : وعندما أراد الخديو

الرجوع إلى مصر ذكرت تحسين بك بحجز المويلحى فسرد علىّ بأن السلطان رأى أن حجزه وهو قد حضر فى كنف الخديو يكون مدعاة للنقد ولا يليق بمقام سموه . . » .

وإنما أراد الخديو حجزه عقاباً له على دسائسه التى ثابر عليها فى السنتين السابقتين . فلم تكن علاقته بالحاشية الخديوية ولا بالسيد البكرى مما يسمح له بخداع البكرى أو يسمح للخديو بالاطمئنان إليه فى شئونه السرية .

وهذا فضلا عما هو معلوم من شهرة المويلحى بالنثر دون الشعر ، فليس هو بالذى يتحدى السيد البكرى فى مساجلات النظم دون أن يفطن البكرى إلى ما وراء تحديه ومنازلته إياه فى هذا المجال .

لهذا نستبعد كما أسلفنا ، أن يكون إبراهيم المويلحى هو الذى استدرج البكرى إلى نظم الأبيات فى الأدب المكشوف فانقاد لاستدراجه ، ولا نجزم بالظن فى أمر المويلحى ولا فى أمر حفنى حتى يأتى اليقين . ورحم الله أبا العلاء حيث قال :

لاتظلموا الموتى وإن طال المدى . إنى أخاف عليكم أن تلتقوا

من حوادث الكلام *

والكلام أبو الحوادث .

فإن النار بالعودين تذكو . وإن الحرب أولها كلام

وكأنما أراد الشاعر أن يبالغ فى خطر الكلام فخيل إليه أنه جاوز مداه حيث قال إنه بداءة الحرب ، ولكنه لم يبالغ فى بيان خطره لأن الكلام أيضاً نهاية كل حرب ، إذ كانت نهاية كل حرب معاهدة صلح أو قصة فى تاريخ أو خبراً من الأخبار .

« والإنسان حيوان ناطق » كلمة صحيحة بكل معنى من معانى النطق ، وصحيح مثلها أن الكلمة أول كل خلق :

كن فيكون . . .

وفى البدء كان الكلمة

و « اللوغوس » فى حكمة اليونان ترادف معنى الكون والوعى الموجود .

فتاريخ الأدب فى العام الماضى ، وفى جميع الأعوام ، إنما هو تاريخ حوادث واقعة ، وإن كانت حوادث كلام ، وأهم حادث فى عالمنا الأدبى قد يكون سطوراً فى ورقات ولا يبخسه ذلك من قدره . . . فما من حادث قط يستحق أن يسمى حادثاً إن فاته أن يصبح سطوراً فى ورقات .

وقد اختلف أدباؤنا فى هذا الحادث المهم حين سئلوا عنه فى نهاية العام الغابر ، أو فى مطلع العام الحاضر ، فقال الأستاذ توفيق الحكيم لمحرر صفحة الأدب : إنه توجيه جائزة نوبل إلى شرشل ، وقال الأستاذ أحمد أمين إنه شيوع الاعتقاد بأن الفن والأدب للمجتمع ، وقال الأستاذ على أدهم : إنه هو ظهور كتاب الفلسفة الشرقية والغربية ، وقال الأستاذ عبد الرحمن صدقى : إنه هو تجدد الاهتمام بالشاعر أبى نواس .

وكلهم على صواب من جهة على الأقل ، وحسبنا ذلك من إصابة فى الإجابة ، لأن الإحاطة بالصواب من جميع جهاته غير ميسورة فى جواب واحد عن مثل هذا السؤال .

وسنعرض لكل جواب بشىء من التعقيب أو المناقشة ، ثم نتركه وفيه بعد ذلك ولا شك مجال لتعقيبات ومناقشات .

* أخبار اليوم ٩ / ١/ ١٩٥٤ .

توفيق الحكيم

قال الأستاذ الحكيم : « إن منح جائزة الأدب لشرشل وهو رئيس وزارة قائمة يدل مع الأسف على أن السياسة وسلطانها فى العصر الحاضر تكاد تفقد الأدب اعتباره وحرية اختياره ، ولو كان شرشل أديباً عاديا وكتب ما كتب لما قومت أعماله بهذا المعيار » .

ونعتقد نحن كما اعتقد الأستاذ الحكيم أن المنصب الكبير قد فعل فعله فى توجيه الجائزة إلى رئيس الوزارة الإنجليزية ، ولكن على غير الوجه الذى يراه الأستاذ .

إن شرشل زميل للحكيم فى فن القصة ، لأنه ألف قصة سفرولا Savrola وهو فى الثالثة والعشرين ، ومن الطريف أن سفرولا هذا هو بطل ديمقراطى يناضل الاستبداد وينشد الحرية ، وإنه يسلك فى جهاده سبلا لو سلكها زعيم وطنى تحت سلطان شرشل لما سلم من الجزاء الشديد .

ولم يثابر شرشل على كتابه القصة منذ قصته الأولى ، حتى تجوز المقابلة بينه وبين الأستاذ الحكيم بعد الخمسين ، ولايهم أى رقم بعد الخمسين !

لكنه كتب فى الأدب والفن والنقد ، ويصح أن يقال إنه كتب فى شئون الفلسفة الأخلاقية فأشفق على مصير الإنسان مع العلم الحديث ، لأنه على تقديره صائر إلى إحدى حالتين : تدمير الحضارة بما يخترعه من الأسلحة ، أو تدمير وجدانه بالمعيشة الآلية ، إذ يصبح هذا الحيوان الناطق كالأداة المتحركة لا يحسن غير عمل واحد يتخصص له بالتحضير والتربية كأنه الإنسان الصناعى المزعوم Robot

ولا نرى رأى الأستاذ الحكيم فى قيمة الكتابة الأدبية التى ظهرت لزميله سابقاً فى فن القصة ، فإن بعض هذه الكتابة يضارع المختار من طبقة الأدباء الذين منحوا الجائزة فى السنوات الأخيرة ، ومنه فى الدراسات « التحليلية » ما يفوق أمثاله . كدراسته لبرنارد شو ولورنس وتروتسكى وبلفور .

ولكننا نعتقد أن هذه الكتابة وحدها لم تكن لترشحه لجائزة نوبل على الخصوص ، وهى جائزة موقوفة على التقريب بين الشعوب وخدمة السلام .

فلماذا توجهت إليه هذه الجائزة ؟

إن العلة هنا فى شعور الأمم الشمالية لا فى طغيان سلطان الوزارة ، فإن أبناء السويد والنرويج والدنمرك لا يستطيعون على ما يظهر أن يفرقوا بين السلام العالمى والسلام الذى يعنيهم ، فإذا وقف شرشل فى وجه النازية والشيوعية فهو عندهم

«خادم سلام » من الطراز الأول . . . فما برحت أمم الشمال الصغيرة تشعر بالخطر من جهة ألمانيا النازية وروسيا السوفييتية ، فكل من حارب هاتين القوتين فهو من خدام قضية السلام .

وهذا يفسر لنا أن جائزة نوبل لم تمنح قط لروسى أو ألمانى إلا أن يكون من الروس البيض أو الألمان المهاجرين ، ويفسر لنا أن الأمريكيين لم يظفروا بإحدى هذه الجوائز إلا بعد اشتراك الولايات المتحدة فى السياسة العالمية ووقوفها بالمرصاد مرة لروسيا ومرة لألمانيا ، أو دعوتها إلى السلم ملحوظاً فيه سلام الأقطار السكندنافية .

من هنا تتعرض السياسة لموازين الأدب ، ولعل الوعى الباطن هنا يفعل فعله بمعزل عن القصد وتعمد المحاباة .

* * *

أحمد أمين

ويقول الدكتور أحمد أمين : « لا أرى أنه حدث فى العام الماضى ما غير وجهة الأدب وإنما حدثت تطورات اقتصادية وسياسية فى بعض الممالك الكبيرة جعلت الأدب يتجه نحو أن يكون فى خدمة المجتمع . . » .

وتعقيبنا على ملاحظة الدكتور أحمد أمين أن نسأل : وماذا تعنى خدمة المجتمع؟

إن كلمة المجتمع لا تعنى بطبيعة الحال أن المجتمع مجرد من الأمثلة العليا والأشواق الرفيعة والمطالب الوجدانية ، فالأدب إذن قد كان فى خدمة المجتمع من أقدم عصوره ، ولا يمكن أن يكون فى خدمة شىء آخر ، فما كانت المجتمعات لتحفظ أدباً تتناقله بالرواية جيلا بعد جيل إن لم يكن فيه مايعنيها ويشغلها ويثير اهتمامها .

والحق أن الأدب يجب أن يخدم المجتمع .

والحق أيضاً أن المجتمع يجب أن يتسع للحياة الإنسانية فى جميع مطالبها ومطامحها ، ومنها المثل العليا وأحلام الخير والجمال .

وعلى هذا لا يكون الشاعر الذى يصف حديقة الورد عرضة للسخرية ، لأن المجتمع الذى لا محل فيه لحديقة الورد ناقص مشوه ، وما من مجتمع فى الدنيا يحتاج إلى من يوصيه بغيط القمح والشعير ، ولكنه قد يحتاج أحياناً إلى من يوصيه بغير الطعام من مطالب الأرواح والأجسام .

* * *

على أدهم

وقبل أن نذكر الحادث الأدبى البارز فى السنة الماضية كما اختاره الأستاذ على أدهم نرجع إلى قصة لا يعرفها القراء ولكنها تجمع بين الطرافة واللزوم فى هذا المقام .

مدرسة الإسكندرية فى الأدب قديمة تتجدد مع المدينة فى أيام عزها وشهرتها ، وهذه المدرسة وجدت مع العصر الحديث واقترنت نشأتها بنشأة القرن العشرين ، وكان على رأسها الأستاذ عبد الرحمن شكرى ومن توابعها الأساتذة على أدهم ومفيد الشوباشى وعبد اللطيف النشار وعثمان حلمى والشيبوبان خليل وصديق ومحمود سالم وزكريا جزارين وطائفة ممن يلى هؤلاء فى السن من الشبان الناشئين .

وبين أبناء هذه الطائفة شيطان لا أسميه خطر له أن يضع مسرحية فى قالب «حلقة ذكر فلسفية» يشترك فيها زملاؤه الأدباء والشعراء ويهتف كل منهم فى ذكره بالاسم الذى يسبح به ويغنى على ليلاه .

فمنهم من يهتف « بيرون . بيرون ! »

ومنهم من يهتف « شيلر . شيلر ! »

ومنهم من يهتف « أنا . أنا . أنا . أنا » . . ولا يزيد عليها .

أما الأستاذ أدهم – وهو أحد الذكيرة المتحمسين – فهتافه على الدوام : «هيجل . شيجل . كارليل . كارليل» . . ثم يعيدها عكساً وطرداً فى حلقة الذكر ، وفى غير الحلقة على انفراد ، بعد انفضاض الذكيرة الهاتفين .

إذا عرف القراء هذه القصة لم يعجبوا لرأيه فى اختيار الحادث البارز من حوادث السنة الأدبية ، وهو : ظهور كتاب الفلسفة الشرقية والغربية فى مجلدين من عمل لجنة هندية ، يرأسها الدكتور « رادا كرشنان » وكيل الجمهورية .

ونحن والله لا نعجب لهذا الاختيار ولا نستكثر على الكتاب أن يكون حادثاً مذكوراً فى السنة الماضية ، لولا أنه كتاب مراجعة وتلخيص وليس بكتاب إبداع وابتكار .

ولكننا مع هذا نحسب أن الجانب الجدير بالتنويه من هذا الكتاب أن يفرغ له رجل مشغول بوكالة جمهورية فى إبان نشأتها ، ولم يكن شاغله الوحيد من نوعه فى أثناء قيامه بهذه الوكالة ، بل أضاف إليه اشتغاله بإحياء الأسفار البرهمية القديمة مترجمة مشفوعة بنصوصها السنسكريتية ومكتوبة بالحروف اللاتينية .

هذه حوادث أدبية جديرة ولا شك بالتنويه ، وفيها ردود كافية على أولئك المتحذلقين الذين أقاموا أنفسهم مقام المتصرفين فى العقول والقرائح ، يمنعون ويبيحون باسم القديم والجديد ، ولا نصيب لهم من قديم أو جديد .

* * *

عبد الرحمن صدقى

والأستاذ عبد الرحمن صدقى يرى « أن الظاهرة التى تستحق التسجيل هى هذا الاهتمام بالشاعر القديم أبى نواس فقد ظهرت عنه عدة كتب ونشرت له قصائد كثيرة ، وهذا الاهتمام ليس من قبيل المصادفة وإنما مرده فيما أعتقد إلى أن الشاعر كان ثائراً على قيود التقاليد وكان داعياً للانطلاق والحرية ، وكان زعيم ثورة ؛ فلا غرابة أن يكون الاهتمام به فى عهد الثورة » .

وفى هذا الرأى صواب كثير ، فلا مصادفة فى الاهتمام بهذا الشاعر فى العصر الحاضر ، ولكنه على ما نرجح قد لقى هذا الاهتمام لأنه أصلح نموذج فى الأدب العربى للدراسات النفسية وتطبيق آراء النفسانيين المحدثين على الأمزجة والأخلاق ، ولا نعلم أن شاعراً آخر من شعراء العربية ييسر للباحث من الشواهد والأمثلة ما ييسره له أبو نواس ، أو أن شاعراً آخر يكثر الخطأ فى دراسته وتكثر الحاجة إلى تصحيح الخطأ كما يتفق ذلك فى دراسة هذا النموذج العجيب ، ولهذا تناولناه بالنقد فى كتاب يظهر قريباً ويتبين منه أن أبا نواس صورة أخرى غير الصورة التى مثلت له فى الأذهان من طريق الشهرة والإشاعة ، وإن جاءت فى أحسن المراجع الأدبية .

* * *

ولا إحراق ، بل أوراق يا وراق

وذلك خلاصة الحادث الذى قلنا إنه أبرز الحوادث الأدبية فى السنة الماضية ، وأشرنا به إلى تصريح الرئيس الأمريكى بوجوب رفع الحجر عن الآراء المعارضة للمذاهب السياسية القائمة فى بلد من البلدان ، فلا يحسن بالعلم ولا بالتعليم أن يدخل الطالب إلى مكتبته وهو يعرف أن الحقيقة مخبوءة عنه أو أن عقله يخشى عليه من الاطلاع على رأى من الآراء ، وأصدق ما يكون ذلك على الشيوعية إن جاز التمييز بين مذهب ومذهب فى حرية الاطلاع عليه ، فما من مذهب هو أظهر عيوباً وأسهل تفنيداً من الشيوعية ، ولا لزوم لسلطان القوة فى تفنيد مذهب قط إذا كانت الكلمة فيه تنفيها كلمات والسند عليه تبطله أسناد .

على أننا نقول هذا ونقول معه إن حرية الفكر غير حرية الإجرام ، وإن إباحة الآراء والأفكار غير إباحة المؤسسات والتنظيمات ، لأن المؤسسة الشيوعية هي باعتراف الشيوعيين مؤامرة علنية على نظام المجتمع وأخلاقه وآدابه وشرائعه ومعاملاته ، وليس قصاراها أنها مؤامرة على الحكومة أو السلطة الحاكمة ، وليس من القانون إباحة العمل على تقويض القانون من أساسه وإباحة ذلك لمن لايقيده قسم ولا عهد ولا يمين ، وإذا صح أن « الفتى يدان كما يدين » فلا موضع لشكوى الشيوعيين من مصادرة المؤامرة السافرة وهم لايسمحون بما دون ذلك من مجرد الخلاف على التفاصيل فضلا عن القواعد والأصول .

الثورة الدائمة

أما ثورة الفكر فهى شىء دائم لايتطلب الإجرام ولا يستعين به على غاية ، بل الإجرام هو القضاء على هذه الشعلة الدائمة التى أودعها الله طبائع البشر حين أودع سر الوجود كله فى « الكلمة » وفى الوحى الذى يتنزل من حين إلى حين على رسل الخير والحرية فلا تنتهى رسالته إلى آخر الزمان .

ونكتب هذا وفى القاهرة - كما قلتم فى أخبار المجتمع منذ بضعة أيام - صاحب كتاب الرجل الثائر البير كامى Camus الذى سميتموه بالفيلسوف .

قلتم فى أخبار المجتمع يوم الأحد الماضى إنه سيصل إلى القاهرة « الفيلسوف الوجودى . . . وسيبقى أسبوعاً يلقى خلاله عدة محاضرات من الأدب الوجودى ، والنقد المعاصر ، وأنه صاحب موقف سياسى يخالف موقف قومه ، لأنه من أنصار الحركات الاستقلالية . . . » .

ولا ندرى هل يرضى كامى نفسه أن يسمى فيلسوفاً وأن يحسب من الوجوديين ، فإن ثورته تشمل المنطق وقيود العقل والعرف وما إليها ، وقوام دعوته كلها أن الدنيا شىء بغير معنى ، وأنها يجب أن تؤخذ على هذه الصفة فلا نتذرع لها بعدة غير عدة العزيمة وقلة المبالاة ، وروايته الكبرى - الطاعون - تقوم على حوار بين الشيخ الذى يحيل الوباء على الحكمة الإلهية وبين الطبيب الذى لايرى له ولا لغيره حكمة ما ، ولكنه يكافحه ويعيش بعد موت امرأته لأنه يأنف من جبن الخنوع والاستسلام ، وكأنما الإنسان فى حياته الضائعة بطل الأسطورة اليونانية «سيسفوس » الذى قُضى عليه أن يخلد فى الجحيم ليرفع كل يوم حجراً ثقيلا من الهاوية إلى القمة ثم ينحدر به فيعود إلى رفعه كرة أخرى . . وعنده أن الأديان قد عالجت شقاء الحياة بالرجاء وبالعقيدة ، فاستنفد الشقاء كل رجاء واستنفد العقيدة

بعد الرجاء ، ولم تبق له قوة يعتصم بها غير الثورة الدائمة وغير التسلية الطيبة فى هذه الغربة التى تزداد غرابة على مر السنين .

لو قلتم « الثائر الأبدى » لكان هذا فيما نحسب أدنى إلى رضى الكاتب من لقب الفيلسوف ثم لقب الفيلسوف الوجودى على الخصوص . . والرجل لما يجاوز الأربعين بعد ، ولما يختم رسالته فى عالم الفكر والأدب ، فلعله مع امتداد العمر يثوب إلى قرار دائم بعد الثورة الدائمة ، أو لعله يدين ببعض المعنى فى ثورته التى لا معنى لها غير الإفلات من الخنوع والتسليم .

ونحن على تقديرنا لصدق الرجل فى شعوره ونبله فى مقاومة أعداء وطنه والأخذ بناصر المظلومين تحت نيره ، نرجح أن آفته كلها قلة الفلسفة فى دعوته ووجهة تفكيره ، لأنه يقرر فى أول كتابه « الثائر » أن الإنسان هو المخلوق الوحيد الذى لا يرتضى ما هو فيه ويريد أن يكون غير ما هو كائن ، ثم ينتهى من الكتاب إلى وجهة عجيبة ، وهى دوام الثورة على الماضى وعلى المستقبل فى سبيل الحاضر .

ترى لو آمن الإنسان بالحاضر وحده هل يثور ؟ وهل يتقدم من حاضر إلى حاضر أعظم منه لو لم يكن نظره معلقاً بالمستقبل على الدوام ؟ وهل يتفق أن يقال إن الإنسان يأبى أن يكون كما هو كائن ثم يقال إنه رهين بالحاضر دون سواه ؟

إن صاحبنا ينكر « الوجود المطلق » Absolute وينعى الإيمان به على المتدينين والماديين ، ولو استطاع الإنسان أن يحصر نفسه فى نطاق المحدود لكان حيث هو كائن بغير أسف على ما مضى وغير اشتياق إلى ما هو آت .

وإنه ليبدع غاية إبداعه حين يصف الغربة التى يشعر بها الكائن العاقل بين عناصر الطبيعة ، وحين يصف سخافة الحوادث والظروف وخلوها من المعنى ، ومن هنا كان سؤال بعضهم له : كيف يفسر اهتمام الكاتب بالكتابة فى الدنيا التى لا معنى لها ؟ أتراك تؤمن بأنها رسالة علوية يساق إليها الكاتب مسخراً من عالم الغيب؟ وقد أجاب سائله بأن الحياة تطلب التغيير بدافع من داخلها ودافع من خارجها كلما ضاقت بها ظروفها ، وأن الكتابة دافع من هذه الدوافع الحيوية ، ويبدو أنه جواب كاف لذلك السؤال ، ولكن السؤال الذى يبقى معلقاً بغير جواب مقنع هو شعور الإنسان بالغربة بين عناصر الطبيعة ، فهل من المعقول أن يخلق الإنسان من عناصر الطبيعة ثم يشعر بالغربة بينها وهو من مادتها ولا شىء فيه غريباً عن هذه المادة ؟ ألا يكون من الأجوبة التى تخطر على البال هنا أنه يشتمل فى كيانه على مزاج غريب هو علة الشعور بتلك الغربة ؟

بل . ويكون من الأجوبة التى تخطر على البال أيضاً أن المزاج الغريب هو هدف الشعلة المقدسة : شعلة الفكر الثائر على المادة إلى غير استقرار ، شعلة الحرية الفكرية التى تخول الفكر حق الصواب والخطأ ، فإنه لا يقال عن الحق إنه حق إذا كان مقيداً بالصواب أو بالصواب كما يراه الآخرون ، ولا حرية للإنسان إن كان الإنسان صالحاً لا يستطيع غير الصلاح .

* * *

وحق التخريف أيضاً

ومن سخرية المناسبات أننا نستطرد ، لبعض المناسبات ، إلى إلحاق الكلام عن حرية التفكير بالكلام عن حرية التخريف .

والمناسبة هى رسالة يقول فيها كاتبها ، بعد إنحاء شديد ، أنه يشك فى قصة «الشاطر هانس» أو قصة الحصان الذى كان يتفرس بنظره فى وجه سائله فيعلم من ملامحه أين يقف عند عد الأرقام أو تمييز الحروف الأبجدية ، ويجزم بأن هذا الخبر من خرافات المشعوذين .

ولا ننكر على كاتب الرسالة حقه فى الجزم بالتكذيب حيث لا موجب للتكذيب لأن التخريف مما يدخل فى حق الخطأ الذى أسلفنا الإشارة إليه .

قال الراوى : والتخريف تخريفان : تخريف معناه قبول الخرافة . وتخريف معناه رفض الحقائق لأنها تبدو لمن يرفضها كالخرافات .

ومن التخريف أن نستكثر على طاقة الحصان أن يستخدم نظره ذلك الاستخدام النادر ، لأننا نستطيع أن نعلم من مجرد النظر إلى عيون الخيل أن استعمال نظرها فى الانتباه إلى ماحولها ضرورة تصنع المعجزات . ومن هذه المعجزات أن العينين تنظران إلى الجانبين خلافاً لأعين الحيوان التى تنظر أمامها وتستدير لتنظر ما حولها ، وقد يكون الحوذية أذكى من كاتب الرسالة الذى رمانا بالتخريف لأننا نقلنا قصة الشاطر هانس ، فإنهم يحجبون نظر الخيل إلى الجانبين ، ولو كان للخيل قدرة على أن تحجب عينيها بيديها كما يفعل بعض الناس لأغمضتها بغير حجاب ، ولكنها مسكينة محرومة من هذا الحق . . . فهنيئاً به لمن يحرص عليه .

ساعة مع الشيطان*

وللقارئ أن يبتسم ، بل هو مبتسم حتما إذا أوحى إليه العنوان أنها ساعة واحدة مع الشيطان .

أساعة واحدة مع هذا الزميل الأبدى الذى صحب أبانا آدم فى الجنة وشيعه إلى الأرض ولم يفارق أبناءه منذ تلك الساعة إلى هذه الساعة !

لو قال قائل إن الشيطان يفارقه ساعة فى اليوم ، أو فى الأسبوع أو فى الشهر ، لكانت هذه دعوى عريضة من بنى آدم فى هذا الزمان .

فإما أن يزعم أن ساعة واحدة مع الشيطان شىء نادر يدار عليه الحديث فى الصحف فلا جواب لتلك الدعوى غير الابتسام ، ويحق للقارئ كما قلنا أن يبتسم ، ولا يضيرنا فى الواقع أن يبتسم ! . فإنها فى آخر الأمر ابتسامة متبادلة ، نأخذها من القارئ ونعيدها إليه بفوائدها ، إلا إذا تخيل أن أوقاته مع ذلك الزميل الأبدى أقل من أوقاتنا ، فلا تكون هذه الدعوى منه إلا دليلا على الملازمة الشيطانية التى لاتسمح بفراق دقيقة واحدة ولا يحق له إذن أقل من ستين ابتسامة فى نسق واحد وإلا ظلمناه وغبناه .

ولكنها ابتسامة متعجلة

أما الواقع فإن هذه الابتسامة كيف كانت ، عجلة من الشيطان لأننا لانقصد الشيطان الأبدى حين نقول إنها ساعة قضيناها معه وكتبنا عن قصتها هذا المقال .

إنما هو شيطان الكاتب الإيطالى « جيوفانى بابينى » الوليد الصغير الذى لم يمض على ميلاده شهران بحساب اللغة الفرنسية على الأقل ، ولم يصل إلى مصر إلا منذ أسبوع .

وجيوفانى بابينى قد ألف فى أول القرن كتابه عن السيد المسيح ، واعتزم أن يؤلف هذا الكتاب عن الشيطان منذ خمسين سنة ، فلم ينجز وعده إلافى السنة الأخيرة ، وهو تسويف على الوعود الشيطانية غير كثير .

* الأخبار ١/ ٥ / ١٩٥٤ .

وربما كان كثيراً أن نقول عن هذا الشيطان إنه شيطان الكاتب الإيطالى الكبير .

فإن « بابينى » لم يخلق لنا شيطاناً من خياله كتلك الشياطين التى خلقها الشعراء والأدباء واشتهر بها أمثال ملتون الإنجليزى وجيتى الألمانى وكردوتشى الإيطالى ولرمنتوف الروسى وآخرون وآخرون من أصدقاء الشياطين المخلصين وأعدائهم المنافقين .

كلا . لم يفعل « بابينى » هذا ولم يبتكر فى كتابه شيطاناً من عنده ، ولكنه استوفى الإحصاء أو كاد عن شياطين الزمن القديم وشياطين الزمن الحديث واستقصى الأخبار عن الشياطين فى كل دين وكل لغة وكل أمة ، فمنها الشيطان الإسرائيلى والشيطان المسيحى والشيطان الإسلامى ، ومنها من يتمتع بالجنسية المصرية ومن يتمتع بالجنسية اليونانية أو الهندية أو الفارسية ، ومنها شياطين الشعراء والفلاسفة والحكماء .

مجموعة حافلة من كل لون ، وتحفة جديرة بموحى التحف إلى عباقرة الفنون ومحتكر الصنف كله – صنف الإغراء والإيعاز والإيحاء – فى عرف رجال الدين .

* * *

الشيطان « المودرن »

وأطرف ما فى هذه التصنيفة الحافلة شيطان حديث يصوره لنا الكاتب الروسى البولونى (مرجكفسكى) صاحب الكتاب المأثور عن المسيح المجهول .

يقول المثل « أعط الشيطان حقه » .

ولكننا على ما يظهر من كلام مرجكفسكى قد أعطينا الشيطان فوق حقوقه جميعاً حين وصفناه بسعة الحيلة وادعينا له أنه خبير بفنون الاختراع والتجديد فى هذا الباب .

فكل حيلة من قبل الحيل المعادة ، أو كلها من قبل الخمرة الجديدة فى البواطى القديمة . . ليس فيها من جديد فى معدنها الأصيل ، ولكنها كالثوب الرديم الذى يحوره ويدوره مع اختلاف الأزياء بين موسم وموسم وبين هندام وهندام .

آية ذلك أنه يغرى الناس اليوم بالحيل التى حاول قبل تسعة عشر قرناً أن يغرى بها السيد المسيح .

وارجع إلى هذه الحيل فى إنجيل متى فماذا ترى ؟

ترى كاتب الإنجيل يقول إن السيد المسيح بعدما صام أربعين يوماً وليلة جاع كثيرا فقال له إبليس : « إن كنت ابن الله فقل لهذه الحجارة تصير خبزاً . . . ثم أخذه إبليس إلى جناح الهيكل وقال له : إن كنت ابن الله فاطرح نفسك إلى أسفل . . ثم أخذه إلى جبل عال جداً وأراه جميع ممالك العالم ومجدها وقال له : أعطيك هذه جميعاً إن خررت وسجدت لى . . » .

أليست هذه أقوى حيل الشيطان ؟

لو كان عنده أقوى منها لكان السيد المسيح أحق بتجريبها فيه ، ولم يدخرها لأحد غيره .

فهذه الحيل – على قول مرجكفسكى – هى كل بضاعة الشيطان العصرى يعيدها ويكررها بقالب جديد .

تحويل الحجر إلى خبز هى صناعته التى علمها أصحاب الكيمياء فاستطاعوا بها أن يستخرجوا اللحم الصناعى والزبدة الصناعية والأطعمة الصناعية جميعاً من مادة الجماد .

والسقوط إلى أسفل ، أو السقوط إلى أعلى . . هى هى صناعة الطيران وما جرته من بلاء الإنسان على الإنسان .

ومملكة العالم هى الشهوة الشيطانية التى تحفز الكتلتين إلى الصراع الوبيل على السيادة العالمية .

فما أقدم حيل الشيطان ، وما أيسر الألاعيب التى يسرح بها هذا الألعبان !

* * *

الشيطان الدولى

ونفهم من كتاب (بابينى) أن فوارق الجنسية غير مقصورة على الأجناس الآدمية .

فهناك عصابة دولية من الشياطين تنتمى إلى الشرق والغرب وإلى الأقدمين والمحدثين .

هناك الشيطان المصرى « سبيت » أقدمها جميعاً وأولها فى ترتيب التشريفات أو التحقيرات ، وهو شبيه بالصحراء التى كان المصريون يخشون حرها وسمومها كما

نخشاه نحن فى هذه الأيام . ورذيلته الكبرى ، الغيرة والنكاية والرعونة التى تتشبه بالشجاعة والإقدام .

وهناك الشيطان الهندى (مرتيا) وهو يغرى بشهوات الجسد ويقود الإنسان من ثَمَّ إلى الموت ويربطه بدولاب الحياة والرجعة أبداً فلا يزال ذاهباً راجعاً كلما تناسلت الأمهات والآباء .

وهناك الشيطان الفارسى أهريمان وهو رب نزل من عرش الربوبية ولم يزل محتفظاً بدعواها مهدداً بالخراب والعذاب كل من يأباها .

وهناك الشيطان الإغريقى « تيفون » وهو الذى ولدته (هيرا) لرب الأرباب ساخطة عليه متهمة له بخيانتها ومغازلة الربات والإنسيات فى غفلة منها ، فهو ثائر متمرد مفتون بالعصيان ، ومصيره إلى الهاوية فى قيود الذل والهوان .

وعلى كل دين

وتختلف الشياطين على حسب الأديان كاختلافها على حسب الملل والألوان .

فالشيطان اليهودى هو (الضد) المعاند والواشى النمام ، ويستعير من اليونانية هذا الوصف الأخير .

والشيطان المسيحى هو رسول الخطيئة وناقل الإنسان من حياة الخلود إلى الحياة التى يختمها الموت ويعيدها التكفير إلى خلودها الأول .

والشيطان الإسلامى هو المتكبر الدساس خادم الرذيلة والفساد وسيد الرذيلة والمفسدين .

وإن بابينى ليفهم شيطان اليهودية فهماً حسناً ويفهم شيطان المسيحية فهماً صحيحاً ، ولكن فهمه للشيطان الإسلامى ليس بالحسن ولا بالصحيح .

يقول الكاتب الإيطالى إن الإسلام عجيب فى موقفه من الشيطان ، ويكاد يقول إن الإسلام يظلم الشيطان ، لأن الشيطان كان (منطقياً) فى اعتقاده أنه أفضل من آدم لأنه من نار وآدم من طين ، أو كما قال بشار بن برد بوحى من الشيطان :

إبليس أكرم من أبيكم آدم ... فتبينوا يا معشر الأشرار
النار عنصره وآدم طينة ... والطين لا يسمو سمو النار

ومهما يكن من حقيقة التفاضل بين العناصر فالكاتب الإيطالى يرى من التناقض أن يكون الإسلام دين الوحدانية الذى لايقبل الهوادة فى تعدد الآلهة على أى صورة وبأى تأويل ثم يقول لنا إن الله أمر إبليس بالسجود لآدم ثم يلعنه لأنه أبى السجود .

* * *

شيطان غير مفهوم

والذنب فى هذا التناقض المزعوم على (بابينى) لا على الإسلام ، لأنه فهم (أولا) أن السجود بمعنى الصلاة وهو جهل منه بالفارق بين معنى السجود فى اللغة ومعناه فى اصطلاح الفرائض الدينية .

فالسجود فى اللغة هو الخضوع والتوقير ، ولم يكن العربى القديم يفهم من السجود أن يضع جبهته على الأرض متعبداً أو مصلياً كما نفهم بعد ذلك من اصطلاح الصلاة .

كذلك الزكاة لها معنى فى اللغة ومعنى فى اصطلاح الفرائض ، فليست التزكية لغة هى بذل الحصة من المال بالمقدار المعلوم ، ولكنها فهمت كذلك بعد فرض الزكاة ، وإن كان فى التسمية خلاف .

وكل تلميذ من تلاميذ الشرق العربى قد سمع المعلم وهو يعاقب بعض تلاميذه فيقول له (اركع ديس) . .وما من أحد يزعم من أجل ذلك أن المعلمين يأمرون التلاميذ بعبادتهم والصلاة لهم فى البلاد العربية .

إن الله لم يأمر إبليس بالصلاة لآدم ، ولكن « بابينى » هو الذى فهم السجود على غير معناه .

أما تفضيل الطين على النار فلا غرابة فيه عند « بابينى » نفسه على فلسفته التى شرحها فى هذا الكتاب .

وفلسفته التى شرحها فى الكتاب هى أن الفضيلة بغير فتنة وغواية شىء غير مفهوم .

فبغير الكبرياء لا عبقرية ولا بطولة ، وبغير الشهوة لا معنى لتغليب الروح على الجسد ورفض اللذات فى سبيل العفة والطهارة ، وبغير الغضب لا معنى لفضائل

العدل والإنصاف ، وبغير الطمع لا معنى للرخاء والاعتدال ، وبغير الكسل لا معنى لمذاهب السلوك التى شرعها كنفشيوس ولاوتسى من حكماء الصين .

ولهذا كان الشيطان « ضرورياً » فى عرف بابينى ، لأن امتحان النفس بالغواية هو الذى يثبت لها الفضل فى المقاومة والثبات .

ولهذا كانت فضيلة الإنسان على المخلوقات ، لأنه عرضة للشهوات والرذائل أما سائر المخلوقات ففى أمان وعصمة من التمييز بين الخير والشر والتكليف بتغليبها لخيار الأمور على شرورها .

وشيطان الإسلام إذن مفهوم جداً وإن كان عند الكاتب الإيطالى متناقضاً غير مفهوم .

والطين الذى يفسد ويتغلب على الفساد أشرف من النار التى تقوى على إصلاح الفساد ثم تعجز عن الإصلاح .

الشيطان الشهيد

ومن ضرورة « الشيطنة » فى عرف بابينى ننتقل إلى ضرورة الشيطنة فى عرف صديقنا توفيق الحكيم .

إن الأستاذ الحكيم كان « أفن » من بابينى فى رفضه التوبة من الشيطان .

لقد ذهب ليتوب على يد الحبر المسيحى فلم يتقبل منه التوبة ، لأنه لا يملك «التصرف» فى عقيدة الخطيئة والتفكير .

وذهب ليتوب على يد الشيخ المسلم فلم يدر الشيخ كيف يقول بعدها « أعوذ بالله من الشيطان الرجيم » .

وذهب قبل ذلك إلى الحاخام اليهودى فأنكر عليه التوبة التى تسوى بين الشعب المختار والشعوب التى يختارها الشيطان أو تختاره هى بالمعصية والإنكار .

إن هذا الشيطان ضرورة « فنية » فى رواية الخليقة ، وهل تصلح الرواية بغير شريرها أو وغدها كما يقال باصطلاح الفن الجميل ؟

إن المسكين ضحية لأزمته . .

إن المسكين شهيد الضرورة ، وإن كانت شهادة الضرورة غير شهادة الاختيار .

* * *

بين التوبة والغفران

وإلى هنا يمتاز الكاتب المصرى باللباقة الفنية ، ويستحق ولا ريب حسن الجزاء من شياطين الفن على أقل تقدير .

ثم يمضى الكاتب الإيطالى خطوة لا يستطيعها الكاتب المصرى ، لأنها خطوة بل خطوات فى أسرار علم اللاهوت .

إذا كان الشيطان ضحية الضرورة فهل له أن يطمع بعد انقضاء الدنيا فى رضوان العالم الآخر ؟

هل له أن يطمع فى الغفران أو هو « طمع إبليس فى الجنة » كما يقال فى عامة الأمثال ؟

بابينى يفتى باحتمال الغفران ، ويعتمد فى ذلك على مراجع كثيرة من القرن الأول للميلاد إلى القرن العشرين .

يعتمد على « أوريجينى » فيلسوف المسيحية الكبير فى القرون الأولى ، ويعتمد على فلاسفة اللاهوت الإسكندريين ، وهم يقولون إن الشيطان لن يبقى له وجود ولا لزوم بعد ارتفاع الموت والخطيئة من الدنيا ، وإنه لا يبقى شيطاناً بعد ذاك ، بل تتغير فيه الطبيعة التى كان قوامها خطيئة وموتاً من غواية العصيان .

ويتقدم الكاتب مع القرون إلى العصر الحديث ، تارة مع القديس جريجوار النيسى وتارة مع القديس جيروم ، وتارات أخرى مع فان فوندل الملقب بشكسبير هولندة فى القرن السابع عشر ، أو مع الفريد دوفينى الفرنسى فى القرن التاسع عشر ، وكلهم يقولون إن الملائكة أنفسهم سيطلبون له الرحمة بعد ارتفاع الخطيئة والموت ، وإنهم بعد لأى ما سيجابون .

ولا ينسى « بابينى » كلام إنجيل متى الذى روى أن السيد المسيح فى اليوم الآخر « يقول للذين على اليسار اذهبوا عنى يا ملاعين إلى النار الأبدية المعدة لإبليس وملائكته » .

لم ينس بابينى هذا الوعيد ولكنه استعان بخبرته اليونانية ففسر الأبدية هنا بالمعنى اللغوى وأبى أن يفسرها بالمعانى الفلسفية التى استعارها من فلسفة علماء اللاهوت ، ولو أنه فعل مثل ذلك فى تفسير السجود لما ادعى على الإسلام أنه غريب فى موقفه من الشيطان .

هذه الخطوة التى خطاها بابينى إلى أسرار علم اللاهوت ياليته ماخطاها . . لأنها جرت عليه الغضب من بعض المتشددين فأنذروه بالعقاب الذى لا يقبل الغفران لأنه أفتى بجواز الغفران على الشيطان .

ونعلق الدعاء له فلا نقول : والله يغفر له ، بل نقول وعلى الله القبول « ويغفر الله لمن يشاء حين يشاء » .

بمعونة الله

ثم نعود إلى قارئنا الذى لمحنا على فمه الابتسام من عنوان «ساعة مع الشيطان» . . . فمهما يكن من الأمر فنحن لم نقرأ كتاب « الشيطان » إلا بمعونة من الله ، لأننا قرأناه باللغة الفرنسية وهى اللغة التى يعيننا الله على فهمها كلما احتجنا إليها ، لأننا تعلمناها فى مدرسة كثيرة القيود والأغلال . . . وتعلمناها على أستاذ من أجهل الناس باللغة الفرنسية .

أما المدرسة فهى سجن قره ميدان

وأما الأستاذ فهو كاتب هذه السطور . . .

وجلية الخبر أننى قضيت من مدة الحبس أربعة أشهر حين صدور الحكم على بتسعة أشهر ، فبقى منها خمسة لم أدر كيف أقضيها بلا عمل ولا راحة . . . فاستخرت الله ودعوت بكتب « التعليم الذاتى » للغة الفرنسية ، وخرجت من السجن وأنا أقرأ أناتول فرانس وأعجز عن قراءة أندريه جيد .

وكنت أيأس أحياناً وأعرض مشكلاتى على زميلى فى السجن الأستاذ حسن النحاس ، فكان جزاه الله خيراً يعيد الطمأنينة إلى ويفهمنى أنها مشكلات تعضل على الفرنسيين أنفسهم ، فلا موجب لليأس إذا هى أعضلت على المبتدئين . .

ثم احتفظت بمعلوماتى الفرنسية القليلة بعد خروجى من السجن لمطالعات الضرورة . . .

أما مطالعات الضرورة عندى فهى الكتاب الذى أعرف مؤلفه وأحب أن أطلع على ثمرات فكره ثم لا أجده مترجماً إلى اللغة الإنجليزية .

وهكذا الشأن فى كتب « بابينى » التى عرفتها وعرفت منها نزعة حسنة وإن لم يكن لها عمق ولم يكن لها فى أكثر الأحوال فضل ابتكار . .

ذهبت إلى الإسكندرية فى أسبوع شم النسيم فوجدت أمامى فى إحدى المكتبات مؤلفه الحديث عن الشيطان .

فأغرانى به شيطان المطالعة الذى لا يفلت من براثنه أحد وقع فى قبضتها .

وأعاننى الله عليه ، والحمد لله . . !

السفور يا « رجال » *

من الواجب ، ومن السهل أن ألبى رجاء الصديق الفاضل الذى لفت نظرنا إلى ببغاوات الأدب فى هذا البلد واقترح علينا أن يكون تعليقنا « درساً يستفاد » ويقطع على الدجل والجهل طريقهما إلى العقول .

ولقد قيل لى كثيراً إن احتقارك الدجل لا يعفيك من واجب الإبانة عنه لمن عسى أن ينخدع فيه ، وإننا على اعتقادنا أن ما يقولونه حق نرى أن أداء الأمانة للحق لا يتوقف على نهج واحد ولا على فضيحة رجل واحد ، وبخاصة حين يلتبس الأمر بين إظهار الحقيقة والحرص على ثناء الدجالين .

حرب الأضداد

لكننا نرى اليوم أننا فعلنا ما ينبغى لدفع كل شبهة من شبهات الحرص على ثناء الدجالين والأدعياء .

فليس فى وسع أحد أن يرمى بالحرص على هذا الثناء كاتباً يهاجم الأضداد فى وقت واحد ، ولا يدخر لنفسه ثناء هذا الضد حين يهاجم من يناقضه ويعاديه ويخص بالثناء من يناصره ويحابيه .

ليس فى وسع أحد أن يتهم بالحرص على الثناء كاتباً يهاجم الشيوعية ويهاجم فى الوقت نفسه مطامع الشركات وأصحاب الملايين ، وليس فى وسعه أن يتهم بذلك كاتباً يهاجم الكتلة الشرقية والكتلة الغربية فى وقت واحد ، أو يهاجم الصهيونية مع من يسمون أنفسهم بالإخوان المسلمين ، أو يهاجم سلطان الوفد وسلطان القصر وسلطان الاحتلال ، أو يلعن النازية ولا يكسب رضى الخلفاء كالذين نالوا منهم الخلع والالقاب والأنواط ، أو يقف فى طريق التبشير وطريق الاستعمار وطريق الاستغلال وطريق الإلحاد ، بما يكتب فى الدين والفلسفة والأدب والتاريخ .

* أخبار اليوم ٦ /٣/ ١٩٥٤ .

إن الذى يبالى الثناء حيث كان لن يفعل هذا ولن يجهل ما ينبغى أن يفعله فمن السهل إذن أن نلقى الدرس المطلوب دون أن يخطر فى البال أننا نلقيه لمصلحة من مصالحنا ، أو لسمعة يعنينا أن نبلغها عند سماسرة الثناء المغرض أو الثناء المأجور .

لكننا لا نلقيه لتصحيح أقاويل الأدعياء فقد وضح أنهم لا يصدرون عن رأى ولا يعرفون ما يكتبون عنه وينتقدونه ويزعمون أنهم ينهضون لتغييره وتبديله ، وأى تصحيح يفيد الدعى الذى ينسب إلينا مذهباً كتبنا عشرين بحثاً فى تفنيده والسخرية منه والدعوة إلى نقيضه ؟ ولقد شرحنا ذلك فى مقال الأسبوع الماضى فليكن الدرس فى هذا المقال أن الأدعياء يجهلون الأدب الذى يجعلونه مثلا منصوباً للاقتداء به والاهتداء على نوره ، وليكن فى هذا الدرس زاجر لهم عن التضليل بعقول القراء وعبرة لمن يضيع الوقت فى الإصغاء إلى ذلك الهراء .

وهذا قسط من أقساط شتى سنبذلها ولا نضن بها بعد اليوم صيانة للعقول وتحذيراً لمن يحسبون أنهم فى أمان من عواقب اللغو والتزييف ، لأنهم شعروا مرات أن الحارس لا يصيح بهم وهم يتسللون .

إعجاب بمرسوم

فهؤلاء الأدعياء يشيدون بقصائد « مايكوفسكى » الشيوعى كما يجهلون العوامل التى أحاطت بشهرته من قبل الثورة الروسية إلى أواخر أيام ستالين .

مايكوفسكى هذا قد حار فى كسب الشهرة والطنطنة الجوفاء فحاولها من كل طريق وانتحر أخيراً لأنه اتهم بخيانة الجماهير .

جعل نفسه تلميذاً فى إيطاليا لشاعر الفاشية « مارتينى » المهرج المعروف ، وأين الفاشية من الشيوعية لو كان هذا المسكين ترجماناً لمذهب يفقه ما يدعيه ؟

وكتب مع أصحابه بياناً (سنة ١٩١٢) ملأوه بصيحات كصيحات الخرس فى آذان الصم ينادون فيه « ألا رجاء للأدب حتى تقذف « باخرة التقدم » بأمثال تولستوى ودستيفسكى وبوشكين وتتسع لأمثاله من «المستقبليين» » .

ثم احتفلت الدولة بعد ذلك بذكرى بوشكين فكان صاحبنا هذا شاعر الاحتفال ، ونظم لبوشكين قصيدة يخاطبه فيها فيقول : إنك لتعلم أنه ما من أحد من هؤلاء يحزن مثل حزنى لأننا لا نراك بيننا هذا اليوم » .

وسئل لنين عن شعره فقال : إننى أقرأ بوشكين ويعجبنى كلامه وأقرأ نكراسوف ويعجبنى كذلك ، وأما مايكوفسكى فلا مؤاخذة . . إنه غير مفهوم !

ثم روت كروبسكايا زوجة لنين فى مذكراتها عنه أنه زار معسكراً للشبان فى أيام المجاعة فقال له بعضهم إنهم يفضلون مايكوفسكى على بوشكين . . فابتسم وقال : أظن بوشكين أفضل .

وقد صدر أمر الدولة بمنع روايتيه الحمام وبقة الفراش ، وغلب اليأس عليه فى أيامه الأخيرة فنظم من مقطوعاته اليائسة مقطوعة يقول فيها : « إن القلب يشتاق إلى رصاصة والرقبة تشتاق إلى موسى . . » . . وظن أنه يستميل إليه المحكمين فى الأدب بقصيدة عن مشروع السنوات الخمس فخاب رجاؤه ، فبخع نفسه وهو فى السابعة والثلاثين .

فكيف حدثت المعجزة بعد ذلك فأصبح مايكوفسكى سيد الشعراء من الروس وغير الروس بلا مراجعة ولا استثناء .

حدث هذا بمرسوم !

وأما كيف حدث فذاك أنه كان خصماً لمدرسة الثقافة الصعلوكية Proletkult هى التى انتقدته وسخرت من شعره وتعبيرات شعوره ، ثم تبين للرفيق ستالين أن المدرسة كانت من حزب تروتسكى كغيرها من المثقفين ، فوجب إذن أن يصبح مايكوفسكى شاعر الإنس والجن ما دام مغضوباً عليه من المثقفين أنصار عدوه المبين ، وعادت دواوينه فطبعت ووزعت على التلاميذ فى المدارس بعد أن كانت محرمة عليهم وعلى سائر القراء ، وشفع له نقاد الدولة فقالوا عنه إنه كان مخلصاً فى خطابه للجماهير وإن لم يفهموه . . ألم يكن مذهبه أنه يريد أن يزيل الفوارق بين الشعر والنثر وكلام الشوارع والأسواق ؟ . . بلى ولا مراء . . فليكن إذن سيد الشعراء !

فكان سيد الشعراء ، وصاحت الببغاء بهذا النداء ، وصاحت به معها زمرة الأدعياء !

وفى سبيل الانتحار

والأدب فى سبيل الحياة كان من صيحات شاعر آخر ، بخع نفسه وهو فى الثلاثين لأنه يحتقر الحضارة الصناعية الحديثة ويرميها بالخسة والدمامة ، ويعاف الحياة بين الماكينات والآلات !

وليذكر القارئ أن الإمامين المجددين فى مصر ضربا المثل برجحان مايكوفسكى على الشاعر « إليوت » لأن إليوت ينكر الحضارة المادية وشاعرهم مايكوفسكى « يمجد الحضارة الصناعية الحديثة ويستبصر بالحركة الصاعدة للتاريخ » .

لكن ما القول فى الشاعر الشيوعى إيسنين ؟

إيسنين هذا ، أو سرجى إيسنين ، نظم شعره فى لعن الصناعة والحنين إلى المزرعة ، وأقذع فى هجاء الأمريكيين لأنهم يبنون الصروح التى تسمى بناطحات السحاب ، ثم نظم أبياتاً قبل موته يقول منها : « إن الموت ليس بالشىء الجديد ولكن الحياة أيضاً ليست بالشىء الجديد ! » .

ومن بدوات هذا « المجدد » أن أهاجيه فى الحضارة الأمريكية لم تمنعه أن يعيش عالة على الراقصة الأمريكية « ازادورا دنكان » ويشغل عندها وظيفة « الزوج » وينتقل معها بهذه الوظيفة « الاسمية » بين عواصم القارة الأوربية .

ولا نحب أن نستعير من اللغة العامية تلك الكلمة الوحيدة التى يطلقها العامة على أمثاله .

فليتفضل باستعارتها من يفضلون العامية على الفصحى فى هذا المقام وفى كل مقام . .

وربما قيل : وما بال الشيوعيين يلامون على بدوات هذا المجدد المنتحر فى سبيل الحياة ؟

فمن قال ذلك من غير المتشيعين فهو معذور . . فأما المتشيعون المفروض فيهم أنهم يعلموننا الأدب « المعتمد » فهم خليقون أن يعلموا أن الدولة هى التى طبعت مؤلفاته بعد انتحاره بسنة واحدة ، وأن عميد الأدب الشيوعى ، مكسيم جوركى ، كتب عنه فشهد له بأنه كان ممثلا لعصر الثورة ، وكتب آخرون فقالوا إن مايكوفسكى نموذج الشيوعى العامل وإيسنين نموذج الشيوعى الفلاح .

والعامل والفلاح كلاهما قد انتحر . . فى سبيل الحياة !

وأهرنبرج وإليوت سواء

والأدعياء قد ضربوا المثل بأهرنبرج وفضلوه على إليوت ، لأن إليوت يعتصم بالدين من متاعب العصر وضوضاء الصناعة .

لو أنهم قرءوا أهرنبرج ، وقرأوا رواية العاصفة خاصة ، لما قالوا هذا أو لما قيل لهم هذا فصدقوه . .

فما نسى أهرنبرج اليهودى أن يجعل الدين ملاذاً يعتصم به أبطاله وبطلاته كلما ضربتهم متاعب الحياة ولاحقتهم مظالم النازيين .

قالت رايشكا لحماتها : أتؤمنين حقاً بوجود الله ؟

قالت « كهُانا » بلكنتها الملحدة لا أعلم فإننى لا أفكر فى هذا حين تسير الأمور فى مجراها ، ولكننى كلما طرأ طارئ . . . ولا تغضبى منى يارايشكا . . فإنك تقرأين كتبك وتذهبين إلى المسرح ، ولكننى لا أملك إلا أن أعود بالذاكرة إلى صلواتى الأولى فأعتصم بسلوى الصلاة . . »

وفى أقاصيص جوردون ، الكاتب اليهودى الآخر ، مناظر « مؤثرة » لليهود الذين يحملون كتب التوراة والتلمود معهم قبل الجلاء عن المواقع المهددة ، ويتركون وراءهم الآنية والمتاع .

والرقباء الشيوعيون يأذنون بوصف هذه المناظر على شرط واحد : وهو الإطناب فى تقريظ نخوة الروس الذين ينجدون الضحايا ويحيطونهم بالعطف والعزاء ، لأنهم كانوا يتوددون لإسرائيل ويطمعون فى تسخيرها ، فإن لم يكن وصف المذابح مقروناً بهذه «الدعاية» الروسية منعوا الرواية أن تطبع وأن تمثل ، إن كانت من المسرحيات .

فهل يجوز لليهودى - فقط أن يعتصم بدينه ولا يجوز ذلك لإليوت المسكين؟ وهل يجب علينا احتقار الشعر لأنه يستنكر الصناعة ونقوم ونقعد إعجاباً بالصناعة المستنكرة إذا استنكرها رفيق من الشيوعيين ؟

نحن إن أعجبنا مايكوفسكى فإنما تعجبنا منه الأبيات بعد الأبيات ومنها مقطوعة الجمل والحصان . .

يقول الجمل وقد نظر إلى الحصان يا له من جمل ناقص . . !

ويقول الحصان وقد نظر إلى الجمل يا له من حصان مشوه . !

ثم يقول الشاعر إنه لا نقص هناك ولا تشويه ، ولكنهما خلقان مختلفان .

لم لا يقول الأدعياء عن اختلاف الشعر مثل هذا المقال ، إن كان لهم من فهم شاعرهم نصيب غير نصيب الببغاء ؟

شيوعى يطلب برهاناً

ومن دواعى التسلية عندى دائماً أن أقرأ كلاماً شيوعيّاً أو أتلقى خطاباً من شيوعيين . .

وأمتع هذه التسليات فى الأيام الأخيرة خطاب من شيوعى بتوقيع « سالم » يطلب فيه برهاناً على ما قلته عن أهرنبرج « نصير السلام العظيم . . المدافع عن قضايا المستعمرات فى كل المحافل وسائر المؤتمرات . . أهرنبرج الكاتب الإنسانى ممجد الحضارة ومقدس الإنسان . . » .

أو بالإيجاز أهرنبرج الذى وصفه صاحبنا بجميع أوصاف « بريا » قبل اعتقاله ، ويجوز أن يصفه غداً بكل أوصاف « بريا » بعد الاعتقال ! قديس عظيم ثم شيطان رجيم فى أربع وعشرين ساعة !

وأمتع التسليات أن تسمع شيوعيّاً يظن أن أوصافه وأوصاف زمرته لإنسان من الناس شىء له قيمة فى حساب الآدميين ، وهذه أوصاف « بريا » قبل الاعتقال وأوصافه بعد الاعتقال لاتزال تطن فى الآذان .

وأمتع التسليات أن تسمع مخلوقاً من هذا الواغش البشرى يصدق ببرهان ويكذب ببرهان ، وهم قد صدقوا كارل ماركس حين أفتى لهم بهدم المجتمعات الإنسانية منذ أول التاريخ إلى اليوم . . أما براهينه على ذلك فلا تكفى لهدم عشّة من عشش الترجمان .

نعم . . وقد صدقوه حين قال لهم إنه رسم للعالم مستقبلا أبديّاً لا يحيد عنه ملايين السنين ، ولا توجد عجوز من أسخف المصدقين بمعجزات الأولياء تصدق من أوليائها مثل هذا الهذيان .

أما فيما نحن فيه خاصة فقد صدق سالم – أو الرفيق شلومة على الأصح – أن العقاد يدين بمذهب فى الأدب قضى أربعين سنة ينقضه ويسخر منه ويقيم الأدلة عن فساده .

ولكن الشىء الذى يستعصى على التصديق عنده هو أن يكون أهرنبرج يهودياً يشفى حزازة قومه من النازيين ، وكيفَ يجوز هذا فى العقول ياترى ؟ وما البرهان عليه يا خلق الله ؟ . .

مزق هدومك يا رفيق شلومة ! .

هو هذا بغير برهان . .

أما إن كان لابد من البرهان ، تحليلا لثمن هدومك – يارفيق شلومة – فمن البراهين القريبة جداً أن الخواجة أهرنبرج لم يكتب لنا قصة عن المنكوبين من مهاجرى فلسطين بإجرام قومه الصهيونيين ، ولم يكتب قصة عن فظائع القرم والتركستان التى نكب بها المسلمون .

ومن هذه الفظائع ما يصلح لقصة يجول فيها قلم « نصير السلام العظيم » . . وهى قصة الرجل الذى أعياه دواء طفله بل عز عليه قوته فخنقه بيديه وقتل نفسه بعده ، ولم يكن وحيداً فى هذا الشقاء .

فليست هذه فظائع تثير النفوس ، وليس هؤلاء آدميين يرثى لهم الكاتب الإنسانى العظيم ، ولا يبعد أن يصدر غداً المرسوم الذى يقول للشيوعيين إنها هى الرحمة كل الرحمة وإنها هى الخير كل الخير ، فيصدقون ويهللون ويستبشرون ، ولا برهان لهم إلا أنها صدرت بمضمون مرسوم ، أو بغير مضمون .

تماماً كما انقلب بريا وغيره من قديسين إلى شياطين من شيعة إبليس اللعين ، فى أربع وعشرين ساعة ، أو أقل من أربع وعشرين !

فإن كان الرفيق شلومة بحاجة إلى برهان آخر فسنعطيه البرهان مخصصاً له ولإخوانه الشجعان الذين لا يهرجون ولا يضللون . .

البرهان أن الخواجة أهرنبرج ينكر النازية ويقبل حذاء الشيوعية ، ويدور مع الكرملين حيث دار الخصوم والأنصار .

أما نحن المهرجين المضللين فنحن مهرجون مضللون بغير برهان ، لأننا نحمل على النازية ونحمل على أختها الشيوعية ونحمل على أخيها الاستعمار ، ولا نفعل ذلك لنقبض الأجور التى يقبضها الخواجة أهرنبرج . . رسول الإنسان فى هذا الزمان .

وسلم لنا عليه يا شلومة !

مقترحـــات

والمعذرة إلى أصحاب الرسائل أن نودع الرفيق شلومة لنتحدث إليهم ، فإنما حديث «الرفيق» ، تسلية لهم ومتعة لأفكارهم وأذهانهم ، وليس أمتع للأفكار والأذهان ، من شيوعى يطلب البرهان .

يسألنا الأديب السيد « عبد اللطيف الحضراوى » بالإسكندرية عن رأينا فى انتقال زعامة الأدب إلى بيروت كما قال الدكتور طه حسين ، ثم يذكرنا بوعدنا أن نضع كتاباً خاصاً فى قصة حياتنا « لتكون درساً مفيداً لشبان هذا الجيل والأجيال المقبلة فى العصامية العلمية . . » .

ولا نعلم الأسباب التى أوجبت فى رأى الدكتور طه أن تنتقل العاصمة الأدبية فى العالم العربى إلى بيروت ، وقد نناقشها أو نقرها إذا علمناها ، ولكن الدكتور على كل حال لا يطيل المهلة فى تولية العواصم والإمارات ، وقديماً جعل إمارة الشعر أشبه بالجمهورية لأنها تنقلت على يديه خلال بضع سنوات بين شوقى والزهاوى والعقاد ومطران وعلى طه ، فأصبحت إمارة كجمهورية أو قنصلية ، وهو خير على كل حال . .

أما كتابة ترجمتى فلا أزال عند وعدى بها قبل سنوات ، ولكنها عمل يحتاج إلى وقت لا أملكه ، فمن التوسط بين إنجازه وإهماله أن أكتب شيئاً منه كلما عرضت له مناسبة ، وذلك خير من الإهمال إلى أن يحين وقت الإنجاز .

الزمخشرى والجرجاوى

ويقترح علينا العالم المجتهد الشيخ « سيد على الطوبجى » بأسيوط أن نؤلف كتاباً عن الجرجاوى وكتاباً عن الزمخشرى ، وكلاهما جدير بالكتابة عنه شرحاً لمذهبه فى اللغة والبلاغة ، وإن يكن مجال التحليل النفسانى لا يتسع فى السيرتين كما يتسع فى سير الأكثرين من الأدباء .

والأستاذ مشكور على ثنائه وعلى تقديره لكتابنا عن أبى نواس ، ونرجو أن يحمد ما نكتبه عن العالمين الجليلين وإن لم نستطع توقيت الموعد للكتابة عنهما بين ما يتتابع علينا من العمل ، وكله فى خدمة الأدب والتاريخ ، وهو عذرنا كلما فرغنا من واجب وتخلفنا عن واجبات .

النفسيات باللغة الفرنسية

ويبدو من خطاب الأديب « تلميذ » أنه اطلع اطلاعاً حسناً على دراسات التحليل النفسانى باللغة الفرنسية ، والأستاذ سلامة موسى كما نعلم يعرف الفرنسية ويستطيع الانتفاع بالكتب التى أشار إليها « تلميذ » إذا لم يكن قد اطلع عليها ، وليست هذه الكتب قليلة باللغة الإنجليزية بل يمكن أن يوجد منها بهذه اللغة ما لا يوجد بغيرها ، كما يمكن أن تكون فى الفرنسية والألمانية والإيطالية ، والإسبانية أيضاً ، كتب جليلة فى هذه الدراسات لم تترجم إلى غيرها .

أما من حيث الكفاية فليس القانع بها مضطراً إلى استقصاء الكتب فى جميع اللغات ، فكيف ونحن فى الشرق نكتفى بما دون الكفاية ؟ وما دون الميسور ؟

الموالد .. وأسواق الأدب *

كان عبد الله نديم ، خطيب الثورة العرابية مناضلا بفطرته التى ولد عليها قبل أن تولد الثورة ، طبع على المناوشة فى ميدان السياسة ، كما طبع عليها فى ميادين الأحاديث والأسمار ، وتعودها فى عالم الفكاهة والعبث ، كما تعودها فى عالم الجد والعمل .

ومن معاركه الفكاهية التى تذكر فى تاريخه إلى جانب معاركه القلمية واللسانية ، تلك المعركة الطريفة التى نشبت بينه وبين عصبة « الأدباتية » من رواد المولد الأحمدى قبل اشتعال الثورة العرابية بخمس سنوات (١٨٧٧) وقد حفظت لها محاضر مكتوبة وتقع فى خمس ملازم من التغييرات الأزهرية ونشرت منها صحيفة الأستاذ فى العدد الحادى والأربعين من سنتها الأولى مقتبسات تدل عليها .

« اتفق لى أنى كنت بمولد سيدى أحمد البدوى رضى الله تعالى عنه سنة ١٢٧٤ هجرية وكان معى السيد على أبو النصر والشيخ رمضان حلاوة والسيد محمد قاسم والشيخ أحمد أبو الفرج الدمنهورى ، فجلسنا على قهوة الصباغ نتفرج على أديب وقف يناظر آخر ، فلما فطن أحدهما لانتقادنا عليهما استلفت أخاه إلينا وخصانا بالكلام فأخذا يمدحاننا واحداً فواحداً ، إلى أن جاء دورهما إلىّ فقال أحدهما يخاطبنى :

انعم بقرشك يا جندى   وإلا اكسنا ، أمال ، يا افندى
إلا أنا وحياتك عندى   بقالى شهرين طول جيعان

فقلت على سبيل المزاح معه :

أما الفلوس أنا مديشى   وأنت تقول لى ممشيشى
يطلع على حشيشى   أقوم أملص لك لودان

قال :

---

* الأخبار ١٩ / ٩ / ١٩٦٢ .

« فلما قمنا وتوجهنا إلى منزل المرحوم شاهين باشا ، وكنا نازلين عنده جميعاً أخبره السيد على أبو النصر بما كان منى مع الأديبين ، فلما أصبحنا استدعى شاهين باشا شيخ الأدباتية وطلب منه أن يستحضر أمهرهم عنده ووعدهم أنهم إن غلبونى أعطاهم ألف قرش ، وإن غلبتهم يضرب كل واحد منهم عشرين كرباجاً ..» .

ثم مضى كاتب القصة فى تفصيل أخبار المعركة التى احتدمت بين الأدباتية من ناحية ، والنديم وحده من الناحية الأخرى زهاء ثلاث ساعات انهزم بعدها الأدباتية ، ولكن شاهين باشا أعفاهم من الضرب وأعطاهم خمسة جنيهات بدلا من العشرة الموعودة ، إذا انتصروا على النديم .

كانت هذه القصة أول ما ورد على ذاكرتى حين قرأت فى أخبار الصحف اليوم أن الأستاذ نائب رئيس المجلس بمدينة طنطا قرر أن يكون الاحتفال بالمولد الأحمدى هذه السنة على نظام جديد يجمع بين نظام المعرض الاقتصادى والموكب الاجتماعى والمحفل الأدبى ، أو كما قال راوى الخبر فى الصحيفة إنه لأول مرة ستقام سوق عكاظ حقيقية يدعى إليها الأدباء والفنانون والصحفيون من أبناء الغربية وهم كثيرون » .

وتواردت على الذاكرة بعد ذلك صور الموالد المشهودة التى حضرناها فى عواصم الأقاليم الكبيرة وقراها الصغيرة ، وأشهرها مولد السيد عبد الرحيم القنائى بمدينة قنا ، ومولد الشيخ البسطامى وبقرية الكوبانية من قرى مركز أسوان .

لم يكن مولد من هذه الموالد معرضاً منتظماً ولا سوقاً عكاظية منتظمة ، ولكنها جميعاً لم تخل من جميع العناصر المتفرقة التى يتألف منها المعرض وتتألف منها السوق . مع الإشراف الحسن والتنظيم المقصود ، والقدرة على وسائل التعاون بين الأقاليم وتيسير الاختيار الحسن لتمثيل القطر كله فى كل مولد من موالده الكبار .

فلم نفتقد فى مولد السيد عبد الرحيم رياضة واحدة من رياضات الفروسية والفتوة أو رياضات التسلية واللعب ، ولم يخل المولد فى أيامه ولياليه من ظاهرة مقصودة أو غير مقصودة تمثل للوارد عليه كل ما اشتمل عليه عرف الإقليم من عادة أو خلق أو « سبر » مقرر فى محافل الأفراح والأحزان ، ولا نظن أن معرضاً رياضياً من معرض القارات الأوربية والأمريكية يحتوى فى برامجه منظراً من مناظر الفروسية والفتوة أحق بالتمثيل والمشاهدة من منظر الفرسان المتصاولين على ظهور الخيل أو منظر المترجلين فى حلقة التحطيب . وهى أدل على البراعة فى استخدام

السلاح اليدوى من حلقات المسابقة ، لأن الحذر من التعرض لمساس السيف قد يرجع إلى الحذر الطبيعى قبل رجوعه إلى «الحذر الفنى» الذى يشاهد فى كل حركة من حركات التحطيب ،

ويقترب المولد من الليلة الأخيرة فتكثر فيه الأسواق «العكاظية» مع هذه الأسواق الرياضية ، ويتقاطر عليه شعراء الربابة والأرغول ورواة القصص والملاحم ، ثم يختتم المولد بتلاوة القصائد فى مقصورة الضريح ، ينظمها شعراء المدينة وما حولها ويتطوع لإلقائها الشيخ الوقور الذى نذر نفسه لترتيل المدائح والمواعظ فى هذا المقام .

أما مولد الشيخ البسطامى فقد كان «القوالون» ينوبون فيه عن شعراء القصائد والتراتيل الفصحى ، وهؤلاء «القوالون» هم خلفاء الشعراء على عهد الجاهلية فى كل شىء غير النظم باللغة الفصحى ، لا يقصرون عنهم فى الحكمة ولا فى المثل السائر ولا فى الإعراب عن «روح الجماعة» كلما حدث حادث يعنيها أو نجم بينها سبب من أسباب الشكاية تترجم عنه بأناشيدها .

ويدور المولد كله على حلقات متباعدة يتردد الزوار عليها جميعاً أو يقبل كل منهم على ما يهواه منها . ولا تقام حلقة «القوالين» فى كل ليلة لاشتغال القوالين بأعمالهم فى القرية أو القرى التى تجاورها ، ولكنها إذا انعقدت بعد ليلة أو ليلتين جذبت إليها زوار الحلقات التى تدور على الرقص أو على المزمار أو على رواة الملاحم ، فلا تعود ليلتها إلى الانعقاد إلا بعد انفضاض حلقة «القول» وسكوت القوالين الحاضرين عن المساجلة .

وطريقة هذه المساجلة عندهم أن يتوسط أحدهم الحلقة واقفاً ويرتجل القول لمناسبة من المناسبات الحاضرة ، ويسمعه مناظره وهو جالس ينكت الأرض بعصاه إلى أن يميل القوال الواقف بالعصا إلى موضع جلوسه ، فينهض زميله إذن ويجيبه مرتجلا على وزن كلامه ، ثم يخلفهما قائلان آخران ولا تزيد أدوار المناظرة -إلا نادراً- على ثلاثة أدوار .

وحبذا القرار الذى استقرت عليه عزيمة نائب المجلس بمدينة المولد الأحمدى ، فإن هذه السنة وشيكة أن تسرى إلى كل مولد من موالد المدن الكبيرة والقرى الصغيرة ، وليس لتعميم الثقافة الشعبية وثقافة الفن والأدب على الإجمال وسيلة أيسر من هذه الوسيلة القريبة التى تهيأت لنا مادتها «الخامة» ولا تحتاج مادتها المصقولة إلى كبير كلفة ، غير اتجاه النية إليها وتوافر الهمة عليها .

تراث الإنسانية بخير وعافية*

كنا نود لبلدينا وسمينا الأستاذ «عباس الأسوانى» نصيباً من التوفيق فى النقد الموضوعى يزيد على نصيبه الذى خرج به من نقده لسلسة «تراث الإنسانية» فى العدد الأخير من مجلة آخر ساعة .

ولكنه قد خانه الحظ فلم يسعده النقد الموضوعى العزيز بغير شطر واحد من شطريه؟ وهو أنه اجتنب المساس بأشخاص المؤلفين والملخصين فى كلمته التى صاح بهم فى عنوانها قائلا : راجعوا ما تنشرونه يا سادة !

فلما التفت إلى الكتب المؤلفة أو الملخصة إذا به يغفل موضوعها كل الإغفال ويوجه إلى سلسلة تراث الإنسانية نقداً لا يخطر ببال أحد يضع موضوع السلسلة أمام عينيه .

يقول الأستاذ عباس الأسوانى : «ولا شك أن سلسلة تحمل هذا الاسم الضخم وتهدف إلى تحقيق هذه الغاية الخطيرة ويشرف على تحريرها نخبة من الأساتذة المشهود لهم بالكفاية لا بد أن تعتبر مرجعاً لا يجوز فيه الخطأ مهما كان يسيراً ، كما ينبغى أن تساق فيه -ولو بشكل موجز- كافة الآراء المتعارضة التى تتعلق بالأعلام أو بالكتب التى ألفوها وأن تراعى الدقة المطلقة فى سرد تفاصيل حياتهم ولا يختصر منها -أى من هذه التفاصيل- إلا ما كان عديم النفع للباحث فى التعرف عليهم ...» .

هذه هى الشروط التى يتطلبها الأستاذ الأسوانى من سلسلة تراث الإنسانية فهل تراه يتطلبها من السلسلة وهو مستحضر لموضوعها ومواضيع مثيلاتها بين يديه ؟ ...

ما هو «أولا» موضوع السلسلة ومثيلاتها فى آداب العالم قبل تحقيق الجواب الصحيح عن هذا السؤال ؟

موضوعها إعطاء فكرة مجملة للقارئ العابر عن كل كتاب معدود بين أمهات الكتب الكبرى التى يجتمع منها تراث الإنسانية فى أبواب الثقافة المختلفة ومع هذه الفكرة العامة إلمامة سريعة بترجمة المؤلف لا تزيد صفحاتها وصفحات الخلاصة الموجزة للكتاب على خمس عشرة إلى نحو عشرين صفحة بقطع السلسلة .

* الأخبار ٩ / ١٠ / ١٩٦٣ .

ومثال ذلك كتاب تاريخ الأمم والملوك للطبرى الذى تناوله الأستاذ الأسوانى بنقده فى السلسلة تعقيباً على تلخيص الأستاذ خليفة التونسى .

هذا الكتاب يقع فى (٣٣٠٠) ورقة من صفحاته التى طبع عليها ، أو يقع فيما يزيد على «٦٠٠٠» صفحة من قطع السلسلة ، وقد وردت أخبار مؤلفه فى عشرات الصفحات بين المراجع المتفرقة وأولها حوادث التاريخ .

فهل يتخيل الأستاذ الأسوانى أن هذه الألوف من الصفحات والأخبار تحتويها بجميع تفصيلاتها الدقيقة سبع عشرة صفحة من السلسلة؟ وهل استطاع الطبرى نفسه وهو مؤلف الكتاب أن يلاحظ ذلك حين اختصر كتابه من ثلاثين ألف ورقة إلى ثلاثمائة وثلاثة آلاف ؟

مثل آخر من أمثلة عرض الكتب المطولة فى السلسلة كتاب لسان العرب لابن منظور ، فهل يستطاع فى حيز السلسلة أن يحيط الملخص بتفصيلات حياة ابن منظور فى ناحية واحدة وهى ناحية المعجم ومواضع المقارنة المسهبة بينه وبين سائر المعجمات التى تقدمته؟ وهل فى وسع الملخص أن يأتى بأكثر من عشرين كلمة على أقصى التقديرات نموذجاً لأسلوب ابن منظور فى شرح معانى الكلمات؟ وهل كلف الأستاذ الأسوانى نفسه أن يرجع إلى مجموعة أوربية كمجموعة السلسلة باللغة العربية ليعرف هنالك الخطة المتبعة فى هذه المجاميع كما تظهر عندنا بجميع اللغات ؟

إن حكم لارشفكول قد لخصت فى عشرات من سلاسل التراث الإنسانى باللغات الأوربية .

وأمامى أكبر هذه المجاميع باللغة الإنجليزية وهى مجموعة «كتب العالم الكبرى» The World Great Book وقد وردت خلاصة الحكم على صفحاتها فى صفحة (٢٣٣٣) .

فإذا رجع إليها السيد الأسوانى لم يجد هنالك إشارة واحدة إلى مدام لافييت التى أوجب على الأستاذ على أدهم أن يذكرها فى كلامه عن لاروشفكول .

وأكثر من ذلك أن ترجمة لاروشفكول وردت فى هذه السلسلة مرتين : إحداهما فى صفحة (٢٣٣٣) والأخرى فى صفحة (٢٤٩٣) عند تقديم مذكراته وهى أولى بالإشارة إلى مدام لافييت لأنها ترجمة حياة وليست مجرد أقوال يكتبها لتجرى

مجرى الأمثال على لسان كل قائل ، ولا يلزم أن يكون هذا القائل من ذوى المعرفة بمدام لافاييت ، فلماذا أهملها المشرفون على سلسلة الكتب الكبرى فى ترجمتين لا فى ترجمة واحدة ؟ وكيف تتسع المجلدات لعرض ملايين الصفحات إذا وجب أن تستقصى جميع هذه التفصيلات ؟

بل أكثر من ذلك وذاك أن معجم الأدب الفرنسى باللغة الإنجليزية الذى اشترك فى تأليفه نخبة المتفرغين لدراسة هذا الأدب باسم : Dictionary of Literature قد كتب عن صاحب الحكم واعتمد فى تلخيص ترجمته على أربعة مراجع غير مجموعة الحكم والمذكرات ، فلم يعرض لسيرة لافييت بكثير ولا قليل .

* * *

ونحب أن نقول لبلدينا الأسوانى وسمينا عباس إن التعجل بنقد أديب محقق واسع العلم بأمهات التراث الإنسانى كالأستاذ على أدهم غير مأمون العثار .

ولهذا عثر السيد الأسوانى عثرة «مليجة» حين أقدم على نقده فى ترجمة بعض الكلمات فقال بنص عبارته :

قد لاحظنا أن ترجمة الأستاذ على لبعض هذه الحكم لم تكن دقيقة للأسف على أهمية الترجمة الدقيقة بالنسبة لهذه الحكم بالذات التى اختار لارشفكول كلماتها بعناية فائقة . . . ومن ذلك أن الأستاذ أدهم ترجم كلمة Maux إلى كلمة متاعب مع أن ترجمتها الدقيقة هى الشرور أو الرذائل . وذلك فى الحكمة التى تقول : فينا من الحكمة ما يكفى لاحتمال شرور الغير . . . ولا يصح أن يقال إن كلمة متاعب تشمل الشرور والرذائل فإنها كما تشملها تتسع لما هو أهون منها إلى أن تصل إلى عادى المضايقات التى لو كان يقصدها لارشفكول لأصبحت حكمته لغواً . . » .

والواضح عندنا من حكمة لارشفكول أنها تصبح لغواً لو أنه أراد الشرور والرذائل . . فإن الشرير والمرذول لايحتاجان إلى صبر على احتمال ما فيهما من شر ورذيلة ، بل يجوز أن يلتذ كل منهما ما هو منغمس فيه من الشهوات والمطامع والسيئات ولا يستغيث من ثقل أعبائه .

أما الأمر الذى يحتاج إلى احتمال من صاحبه فهو المتاعب والمقلقات والمضايقات ما كبر منها وما صغر على حسب الطاقة والأذى .

وها هنا نستطيع أن نفهم معنى لحكمة لارشفكول ، فلا تصبح لغواً بغير معنى! . . لأنه يتهكم بدعوى الحكمة عند الناس حين يلومون غيرهم على القلق والانزعاج ويحسبون أنهم يصبرون على متاعبهم ومقلقاتهم لو أصيبوا بمثلها ، وهم كما نقول فى أمثالنا : «كل من على البر عوام» . . . أوهم كما كان النازيون يقولون متهكمين بحماسة الإنجليز فى الحرب العالمية : «إننا نثابر على القتال إلى آخر جندى فرنسى» . . . أى إن ضحايا الآخرين سهلة الاحتمال ، ولكن الناس لايملكون مثل هذه الحكمة ولا مثل هذا الصبر إذا كانوا هم المصابين بالبلاء .

وليس من اللازم أن يبرع الإنسان فى فهم دقائق اللغة الفرنسية ليفهم المقصود بقول القائل Mal La Tete سواء كان ألماً أو مجرد وجع دماغ كما يقال .

ولقد كان من الحق أن نلفت الأستاذ الناقد إلى أخطائه العربية لو جرينا على طريقته فى إحصاء المآخذ على الآخرين ، وهى فى نحو عمود واحد لا تقل عن عشرة أخطاء ، ولكننا نقنع بالاستعارة منه قائلين وهو ينصح لنا قائلا : «راجعوا ما تنشرونه يا سادة . . .» فنقول له : «راجع يا سيد ما تطلب فيه المراجعة من الناس» . . . ولو أنه فعل لكلف نفسه أن يفتح صفحة من مجموعة كمجموعة السلسلة باللغات الأوربية ، فيعلم أنها مقصودة فى كل لغة لكى تنوب عن الفهرس الواسع الذى تعده بعض المكتبات للتعريف بمحتويات كتبها ، ولا نزيد على هذا القدر -بأية حال- إلى درجة الإحصاء والاستقصاء الذى لا يفوته جليل ولا دقيق من التفصيلات .

* * *

« . . . أرجو أن تتكرموا بتوضيح أصل كلمة (مِيت) التى كثيراً ما نطالعها فى أسماء المدن والقرى مثل ميت غمر وميت يعيش وميت علوان ، وهكذا .

« وأرجو أن يكون إيضاحكم . . . على صفحات الأخبار فى يومياتكم »

دكتور شرارة

مستشار مؤسسة أوريان - إسكندرية

. . والمتفق عليه بين العارفين باللغة القبطية أن كلمة «ميت» هى كلمة منية بعينها ، ولهذا يقال منية - المرشد - مثلا - كما يقال ميت المرشد ، أو يقال منية سمنود كما يقال ميت سمنود إلخ .

وترجع الكلمة القبطية إلى كلمة «مون» أو «مين» الفرعونية بمعنى بلدة ، وقد خلفتها – بعد الفتح العربى – كلمة منزلة أو محلة «كمحلة روح» ومحلة قيس ومحلة مالك ومحلة أبى الهيثم «والمحلة الكبرى» وغيرها من البلدان التى حلت فيها العشائر الوافدة مع الجيش العربى لما يلاحظ من اختلاف المكان بين الحل والترحل فى حركات هذه العشائر قبل الاستقرار فى القرى والحواضر .

* * *

« . . . ماذا يعنى النقاد بوصفهم هذا الكاتب أو الأديب بأنه متصوف ؟ وهل هناك سمات معينة يتميز بها المتصوف من الكتاب والأدباء ، وما هى ؟ »

مكين عبد الحميد بتجارة القاهرة

إذا كان التصوف الذى ينسب إليه الأديب مذهباً من مذاهب العبادة بين أصحاب الطرق الصوفية أو أصحاب الآراء الدينية فلا التباس فيه ، لأنه ينصرف إلى معناه الذى لايجاوز حدود العقائد والشعائر أو حدود المسالك النسكية التى يسلكها الزهاد والحكماء الدينيون .

ولكن النقاد لا يقصدون فى الغالب إلى هذا المعنى حين يتكلمون عن موضوعات الأدب وأساليب الكتابة ، وإنما يقصدون إلى التمييز بين الكاتب الذى لا خفاء بأقواله وآرائه وموضوعات وصفه وتفكيره ، وبين الكاتب الذى يبدو بعض معناه ويحس القارئ أن وراءكلامه الظاهر معنى آخر يحتاج إلى التفسير ويحتمل اختلاف العقول فى إدراكه وتوجيه مرماه ، ولا يطلق هذا الوصف على الكتاب الذين يقصرون تفكيرهم على القيم السطحية ولا يؤمنون بالأسرار وراء المظاهر والمحسوسات ، فإن الناقد لا يصف الكاتب من هؤلاء بالتصوف ولو كان أسلوبه فى عرض أفكاره قليل الوضوح من الوجهة اللغوية .

وقد يقال عن الشاعر إنه غامض معقد التركيب فى بعض أبياته ، ولا يقال عنه مع هذا إنه شاعر متصوف ، فإن أبياتاً كثيرة من شعر المتنبى تحتاج إلى شرح لغوى تختلف عليه الآراء ، ولكنه لا يوصف بالتصوف لأنه ينهج منهج الحكمة العملية التى يزاولها الناس فى تجاربهم اليومية ، وقد يغوص على الحقائق العميقة التى لا يلمحها الناظر لأول نظرة ، ولكنها بعد ذلك قابلة لأن يلمحها من يشاء متى التفت إليها .

وقد يقال – أحياناً – عن شاعر يصف المحسوسات وينظم فى الخمر والغزل إنه متصوف كما قيل فى كثير مما كتب عمر الخيام ، لأن كلامه فى الخمر والغزل مصحوب ببحث عن مشكلات الحياة ومعنى الوجود ومصير الإنسان فى دنياه ، وكأنما هو قد خرج من أعماق تفكيره فى هذه الخفايا ليتعوض منها بلذات الحس ويشتغل بحاضره عن مجاهل المستقبل الذى يقصر به التفكير عن الوصول إلى مداه .

وينظم شاعر آخر كأبى نواس فى مثل هذه الأغراض من معاقرة الخمر والتشبيب الصريح أو المستور بالمعشوق ، فلا يخطر لناقد أن يسميه متصوفاً ولو تطرق فى بعض شعره إلى التوسل والاستغفار أو إلى ذكر العبادات والأسرار .

ولا بد فى «التصوف» كيفما كان موضوعه أن يوحى إلى القارئ بمعنى من وراء حجاب الحس كأنه الظلال التى تقترن بالأنوار ، ولو فى وضح النهار .

شروط الكتابة *

يقول القلقشندى إن الذكورة شرط لمن يتصدى للكتابة ، وأحسب أنكم تناصرون هذا القول لموافقته لرأيكم فى كفاءة المرأة بوجه عام ، فهل لى أن أسأل عن هذا الشرط بالنسبة لأديبة من أديبات العصر النابغات كالآنسة «مى زيادة» ومن يضارعها . . ؟

ماهر محمود البقرى

آداب الإسكندرية

أيًا كان الكلام الذى قاله القلقشندى فى شروط الكتابة ، فينبغى أن نذكر هنا أن الكتابة - كما تشترط فى دواوين الإنشاء - هى صناعة غير صناعة التأليف وتحرير المقالات والفصول .

إن الكتابة هنا صناعة كصناعة الوزارة يشترط فيها كل ما كان مشترطاً فى الوزير المسئول عن الإدارة العامة أو عن ديوان الخليفة والأمير . وقد كانت الكتابة مساوية للوزارة بهذا المعنى فى أمم كثيرة شرقية أو غربية ، ويسمى الوزير الإنجليزى إلى اليوم بالسكرتير أو سكرتير الدولة عن الديوان الذى يتولاه .

فإذا كان الكلام عن صناعة الكتابة بمعنى التأليف والتحرير فليس شرط الذكورة لازماً لهذه الصناعة فى رأى القلقشندى ولا فى رأى غيره من أدبائنا المتقدمين والمتأخرين ، وقد كانت بنات البيوت يتعلمن الكتابة والقراءة ويحفظن الأشعار والأخبار ويروين ما يرويه ظرفاء المجالس من الطرف والأمثال وملح الحديث والفكاهة ، ولم يكن تعليم الكتابة والقراءة محظوراً على البنات بغير حكم العادة والتقليد فى عصور الجمود ، فقد أوجبه الدين إذ جعل طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة ، وأوجبه العرف المثقف على الذين يحتكمون إلى الذوق السليم فى مسائل التربية كما يحتكمون إلى الدين .

ونبوغ الآنسة «مى زيادة» ونظيراتها فى كتابتهن دليل على استعداد المرأة للإجادة فى أبواب من التأليف والتحرير يقرؤها الرجال كما تقرؤها النساء ، وقد

* الأخبار ٢١/ ٦ / ١٩٦١ .

ذكرنا غير مرة أن المرأة برعت فى فنون من القصة والمقالة الوصفية كما برعت فى فنون التمثيل والغناء ، وليس من المشترط على كل كاتبة أن ترتفع إلى القمة العليا فى بابها أو فى أبواب الكتابة على اختلافها ، فإذا أحسنت فنًا من الفنون الأدبية فحقها كحق كل كاتب يحسنه ولو لم يرتفع إلى القمة العليا التى يعد المرتفعون إليها بالآحاد بين أصحاب كل صناعة ، فإننا نحرم الصناعات جميعاً على الصناع من الذكور والإناث إذا اشترطنا فيها التفوق على الآخرين ! . . ومن هم الآخرون - إذن - ما دام التخلف عن القمة العليا محرماً على طالب الكتابة منذ البداية ؟

على أن الكاتبات المحسنات باللغة العربية أكثر عدداً من المسيئات منهن إلى صناعة الكتابة . . وربما كان لقلة العدد مع حداثة العهد شأنها فى هذا الحساب لكنه على أية حال شأن يذكر للمرأة إذا وضعت للكتابة شروطها وفتح لها فى العصر الحاضر ديوان غير ديوان القلقشندى فى صبح أعشاه .

* * *

الانتحـــار :

تغيرت نظرات الناس فى بلادنا إلى الانتحار فى الجيلين الأخيرين . وقد كان الانتحار - كما لا يخفى - آفة قديمة عرفها الأقدمون قبل أيام هذه الحضارة الأوربية : ولكنهم فوجئوا بأخباره فى الصحف بعد ظهور الصحافة عندنا فكانت لهم فيه آراء طارئة غير متأثرة بالتقاليد الموروثة فى العصور الخالية .

نظروا إليه «أولا» كأنه ضرب من الشجاعة لأنه إقدام على الموت .

ونظروا إليه بعد ذلك نظرة أصح وأسلم من هذه النظرة ، فأخذوا بأقوال الناصحين والوعاظ أنه ضرب من الجبن لأنه هرب من معركة الحياة .

ونظروا إليه كأنه نوع من الاحتجاج والتحدى ، وكأنه نوع من الخجل والاعتذار ولم تخل إحدى هذه النظرات من شعور الاستخفاف بالحياة وبالوازع الذى ينهى عن الانتحار ، لأن هذا الشعور لا ينفصل عن عمل يائس يسوق صاحبه إلى قلة الاكتراث بحياته وقلة الاكتراث بما ينهاه عن العدوان عليها .

ولسنا نعتقد أن الناشئة المساكين الذين تساورهم هذه الفكرة أحسن ظنا بالمنتحر من أندادهم قبل عشرين أو ثلاثين سنة ، ولكننا نحتاج إلى معلومات كثيرة لتقدير هذه الحالة النفسية بين الجيلين ، ونحس أن هذه المعلومات ناقصة فى سجلاتنا

الاجتماعية بالقياس إلى أمثالها فى الأمم الأوربية والأمريكية ، فلا ندرى من أى فريق من أصحاب الأمزجة المختلفة يكون الناشئ الذى تغلبه هذه الآفة بين زملائه المتغلبين عليها !

هل هو من المجتهدين ؟

هل هو من المتدينين ؟

هل له تربية عريقة فى عرف العائلات ؟

هل هو من المعرضين للأمراض العصابية ؟

وهل لمتاعب البيت فى أسرته علاقة بأزماته النفسية ؟

إن الإحصاءات فى الأمم الأوربية والأمريكية تعنى بجميع هذه التفصيلات وقد تعين على البحث فى أسباب الوقاية التى تخص المعرضين لهذه الآفة أو تعم المجتمع كله فى أزماته النفسية وعوارضه الباطنة وهى متشابهة متشابكة بين أبناء الحضارة الحديثة .

ونحسب أن نظام الامتحان الذى يجرى به العمل الآن قد أراح الطلبة من كثير من عوائق الإعادة وبواعث القنوط والإشفاق من ضياع الفرصة فى أوانها ، ولا نكاد نرى بقية من التعديل تخفف من هذا النظام فوق ما تلاحق عليه من تعديلات السنين الماضية ، إلا إذا صح قول القائلين أن موسم الشتاء أرفق بأعصاب الطلبة الممتحنين من موسم الصيف ، وأن تغيير هذا الموسم أمر مستطاع لا ضير فيه على مناهج التدريس ولا على الدارسين والمدرسين .

ولكن نظم الامتحانات والتصحيحات مهما يكن من أثرها فى التخفيف والتهوين لا تغنى آخر الأمر عن التعبئة الأخلاقية فى كل شدة وكل حرج : تعبئة أخلاقية تزود الناشئين بعزيمة تثبت لكل محنة وطاقة على خلق الأمل لاتتعلق بنجاح واحد ولا تعيش على أمنية واحدة ، بل تخلق لنفسها النجاح الذى هى قادرة عليه والبديل الذى يعوضها من كل مفقود ، وليس بالعسير توليد هذه الطاقة فى نفوس الناشئين بعد ذهاب الزمن الذى كان يقدس «الوظيفة» ويقدس معها علامة «الميرى» فوق كل بضاعة : وبضاعات القلوب والنفوس قبل بضاعات الدكاكين والدواوين .

كتاب منكوب *

« قرأت مقالا بتوقيع ابن زيدون يقول كاتبه إن أحد الناشرين طلب إلى العقاد أن يؤلف كتاباً عن الأدب العربى فى مطلع القرن العشرين نظير مائة جنيه ، فلما أتم العقاد الكتاب ذهب به إلى الناشر وجلس قليلا يشرب القهوة ريثما يأتى الناشر بالمبلغ ولكنه أتى بتسعين فقط واعتذر للعقاد بضيق الحال . فنهره العقاد بشدة لأنه يعلم أنه كاذب وانتزع منه الكتاب المخطوط فمزقه شر ممزق وأشعل النار فى أشلائه . . فضاع إلى الأبد . .

«وفى إحدى الندوات الخاصة دارت مناقشة حامية فانقسم الحاضرون بين فريق يقول إن الذى فعله العقاد دليل على تمسكه بالمال وحرصه عليه ، وفريق يعتبر أنه توكيد لما عرف عنكم من اعتزاز بالكلمة وحرص على الكرامة . . . أما أنا -ياسيدى- فلا أكاد أصدق هذه الواقعة وأرى فيها تحريفاً غير مقصود ، أو لعله مقصود ولا ندرى . . . وأكون شاكراً لو وضحتم لنا هذا الأمر فى اليوميات» .

محمد محمد مرشدى بركات

كلية الآداب – جامعة عين شمس

إذا كان لقصة هذا الكتاب فائدة غير تصحيح الخبر فتلك هى فائدتها فى دراسة تاريخ الأسطورة لأنها هى بذاتها مثال جيد لنشأة الأسطورة فى الزمن الحاضر ونشأتها ، من ثم ، فى الأزمنة الماضية .

إن الأساطير جميعاً خليط من الخبر الصحيح والمبالغة الزائدة ، وخليط من الواقع الثابت والخيال الجامح ، وخليط من عمل الفكر وعمل العاطفة وعمل الذاكرة وعمل الخرافة !

وهذه هى الأسطورة فى خبر الكتاب المحرق على رواية ابن زيدون .

أما «الأصل» المجرد من الزوائد والأخلاط والمبالغات فهذه خلاصته فى سطور .

* الأخبار ٢٢ / ١١ / ١٩٦١ .

ذهبت إلى أسوان قبيل الحرب العالمية الأولى فأزمعت بعد بضعة أسابيع من الفراغ المطلق أن أشغل هذا الفراغ بقراءة الكتب وتدوين المؤثرات التى أحسستها أثناء قراءتها كتاباً بعد كتاب وساعة بعد ساعة وتم عندى من كتابة هذه المؤثرات نحو ثلاثمائة صفحة تصلح للنشر على حدة ، أى مستقلة عن الكتب التى علقت عليها بعد قراءتها .

وأرسلت هذه الصفحات إلى صديقى الأستاذ المازنى بالقاهرة ليعهد إلى أحد الناشرين فى طبعها ، فجاءنى منه الرد بعد حين بما فحواه أن الناشر الوحيد الذى قبل أن يطبعها يريد أن يشتريها بخمسة عشر جنيهاً وعدد من النسخ المطبوعة بعد صدورها ، ولا ينوى أن يشرع فى طبعها قبل بضعة شهور .

ولا أذكر أننى شعرت بغضب فى تلك اللحظة ، إذا كان المقصود بالغضب ثورة الشعور فى هياج واضطراب ، ولكننى أخذت رزمة الصحائف المخطوطة ومشيت بها إلى ناحية الفرن بالمنزل ، وألقيتها بين نيرانه المتوقدة ممزقة مبعثرة ، وأنا أقول للسيدة الوالدة التى كانت تعاتبنى دائماً على إدمان النظر فى (الورق) بغير فائدة : هكذا يؤكل العيش من طريق التأليف !

وبعد أسابيع أخرى عدت إلى التجربة من جديد ونويت فى هذه المرة أن أطبع الكتاب لحسابى إذا تم من الصفحات ما يكفى لطبع كتاب ، ثم عدت بالصفحات إلى القاهرة وطبعت منها خمس ملازم حان بعدها موعد العودة إلى البلدة ، فأسلمت الملازم المطبوعة إلى صاحب مكتبة بجوار المسجد الحسينى كان قد اطلع على الملازم فى المطبعة لأنه يطبع فيها بعض كتبه ، وأبدى لى رغبته فى موالاة طبع الملازم الباقية على نفقته وتسليمى خمسمائة نسخة من الكتاب كله . على ما أذكر ، بعد الفراغ من طبعه ، بدلا من حق التأليف .

وانتظرت أياماً فى أسوان فلم تصل إلى مسودة الملزمة السادسة للمراجعة ، فأرسلت إلى صاحب المكتبة الخطاب بعد الخطاب ولا جواب ، ثم علمت أنه أغلق المكتبة بعد توقيع الحجز عليها وبيع ما فيها ، وسافر إلى بلده بإقليم الفيوم .

وعاد الصيف فعدت إلى القاهرة وجلست ذات مساء على مقهى عند العتبة الخضراء على مدخل السكة الجديدة ، فسمعت بائع كتب ينادى فيما ينادى عليه

على كتاب «ساعات بين الكتب» للعقاد وهو اسم ذلك الكتاب الذى اخترته له لأنه مطابق لموضوعه ، وموضوعه كما تقدم هو تدوين آثار الكتب فى نفسى وتفكيرى ساعة بعد ساعة !

وكان أول ما خطر لى أن الرجل أتم طبع الكتاب من الأصول التى تركتها عنده ، فحمدت الله وناديت البائع وطلبته منه فإذا هو الملازم الخمس ولا زيادة عليها ، فعجبت لهذا الكتاب المنكوب ولم أعاود التجربة مرة أخرى ، ولكننى ضمنت الملازم الخمس أول مجموعة من مجاميع المقالات نشرتها باسم الفصول .

أما كتاب «ساعات بين الكتب» الذى ظهر بعد ذلك فهو غير هذا الكتاب فى طريقته وإن كان شبيهاً به فى موضوعه ، لأنه يحتوى مقالات فى نقد الكتب ومناقشتها نشرتها بالصحف اليومية أو الأسبوعية التى كنت أعمل فى تحريرها !

هذه هى القصة وتلك هى الأسطورة ، والفرق بينهما هو الفرق بين كل أسطورة قديمة وخبرها الصحيح .

الصحافة بين أسلوبين *

أسلوب التنوير .. وأسلوب التسلية

فى كل مجال من مجالات الحياة العامة ثورة على وظيفة الناقد حيثما كان ، ولا سيما وظيفة الناقد فى عالم الآداب ، وعالم الفنون .

ولا تهمنا هنا وظيفة الناقد فى مجالاتها الكثيرة التى تحيط بالشئون العامة ، فإن لها موضعاً غير هذا الموضع ، أو مناسبة غير هذه المناسبة !

ولكننا نعنى «الناقد الأدبى» حين نعرض لوظائف النقد فى جملتها ، ونلاحظ (أولا) أن «الحالة واحدة» عندنا نحن الشرقيين وعندهم أولئك الغربيين ، من أروبيين وأمريكيين .. !

ففى كل مكان يذكر فيه النقد الأدبى يوجد اليوم من يسأل : من هو الناقد؟ وكيف يؤدى وظيفته؟ وهل هناك نقاد يؤدون وظيفتهم؟ وهل عند هؤلاء النقاد ما يحتاج إليه الناقد من الأمانة والكفاية ؟

فى عدد هذا الشهر من مجلة «انكاونتر» الإنجليزية سأل سائل : لماذا يعرض بعض القراء اليوم عن آراء سيريل كونولى ؟

والسائل هو «أدموند ويلسون» وناهيك به عن ناقد «عالمى» يرشحه الكثيرون للزعامة العالمية -الغربية- فى النقد الأدبى ، وأحسبه أوسع النقاد ثقافة بين كتاب اللغة الإنجليزية الأحياء .

والمسئول عنه -سيريل كونولى- هو الناقد المختار زمناً طويلا لمجلة الأوبزرفر ومجلة «نيوستيتسمان» وهو صاحب مجلة الأفق Horizon التى تنسب إليها أحياناً دعوة الأفق المفقود كما تنسب إليها أحياناً دعوة الأفق الطالع ، بمعنى أفق العالم الجديد ، وهو زميل جورج أورويل وجراهام جرين ، وكلاهما فى الذروة من المكانة الأدبية بين الكتاب المعاصرين ، ولعله أنبغ النقاد من مواليد القرن العشرين .

قال الكاتب المسئول -جون وين- إنه ليس على يقين من إعراض القراء عن آراء «كونولى» وأدى بذلك واجب المجاملة لزميله الكبير ، قبل أن يستطرد إلى إجابة

* الأخبار ٢٥ / ١١ / ١٩٦١ .

سؤال ادموند ويلسون على اعتباره سؤالا يستحق البحث فيه : لأنه سؤال رجل يزن ما يقول » .

وعند كاتب المجلة التى نشر فيها الموضوع أن كونولى هو الذى يجنى على سمعته ، لأنه يكرر ويعيد أنه اشتغل بالنقد بعد إخفاقه فى محاولاته الأدبية الأخرى ، ومنها نظم الشعر وكتابة المقال المنثور .

فالناقد لا تتم له وظيفة النقد لمجرد كونه شاعراً مخفقاً أو كاتباً مقصراً عن منزلة الإجادة والإبداع ، ولن يكون الإنسان ناقداً لأنه ليس بشاعر ولا كاتب ، ولكنه يحتاج إلى «ملكة إيجابية» ترشحه للنقد كما يحتاج الشاعر إلى ملكة الخلق الشعرى ، ويحتاج الكاتب إلى ملكة القدرة الكتابية .

قال كاتب المجلة بعد ذلك إن سبباً آخر من أسباب «هز الكتفين» لآراء كونولى أنه يستمع بالرواج بين الطوائف التى لا تنظر إلى المطالعة نظرة جدية ولا تصبر على التفكير فيما تطلع عليه ، فإن رواجه بين هؤلاء يسلبه ثقة القراء الذين يفكرون ويراجعون أنفسهم فيما قرءوه .

واتفق قبل نهاية الأسبوع الذى ظهر فيه عدد المجلة أن صدر ملحق «التيمس» الأدبى وفى صدره مقال للشاعر الناقد «إليوت» يحيى به أستاذ النقاد الإنجليز فى العصر الحاضر -ليتلتون ريشموند- لمناسبة بلوغه الثمانين ، ويعيد إلى الأذهان دروس هذا الأستاذ القدير لتلاميذه الناشئين على يديه ، ويفرق فى مقاله بين مدرسة النقاد الذين يكتبون لملحق «التيمس» الأدبى ومدرسة النقاد فى مجلة الأوبزرفر والاستيتسمان وغيرهما من المجلات الأسبوعية التى تعنى بالمسائل الأدبية ، ويعتقد «إليوت» أن كتابة المقالات النقدية بغير توقيع كما تنشر فى التيمس لها شأن كبير بجوهر النقد وطريقته وأسلوبه ، لأن الكاتب ينسى وجهته الشخصية ويتحرى وجهة المبادئ العامة حين يكتب بغير توقيعه المعروف ، ولكنه يسمح لنفسه بتمثيل رأيه ومزاجه وعلاقاته الخاصة حين يكتب ما يكتب على تبعته وفاقاً للمعروف من مبادئه ، وقد تكون مبادئ مدرسة خاصة أو ناقد خاص بين جمهرة النقاد .

ويتفق أيضاً أن هذه الآراء تنشر فى وقت يعتبرونه هناك من أوقات الأزمات الصحفية لاحتجاب بعض الصحف واضطرار غيرها إلى الاندماج أو توحيد العنوان .

ويكتب النقاد فى تعليل هذه الأزمة فيقولون إنها ظاهرة من ظواهر الانتقال والتحول بين أسلوب الصحافة قبل خمسين سنة وأسلوبها بعد الحربين العالميتين ، ومنهم من يلخص الفارق بين الأسلوبين بأنه هو الفارق بين أسلوب

«التنوير»وأسلوب «حديث المائدة» أو حديث السمر والتسلية ، فإن القارئ قبل خمسين سنة كان يقرأ الصحيفة وينتظر منها «تنويره» وإمداده بالمعلومات التى تعينه على تكوين رأيه ، ولكنه يقرأ الصحيفة اليوم ولا يرى للصحفيين حقاً فى تنويره أو تعليمه شيئاً يجهله ، وكل ما ينتظره من الصحيفة أن تحدثه كما يتحدث حول المائدة أو كما يتحدث مع ناقل الخبر وراوى القصة المسلية ، وقلما ينتظر منها الفائدة أو الرأى المسموع .

ونحسب أن الناس لا يختلفون هذا الاختلاف فى وظيفة الناقد والكاتب أو فى وظيفة الصحيفة الأدبية والخبرية إلا لأنهم يختلفون قبل ذلك فى وظيفة «القارئ» وفى الغرض من القراءة كلها قبل كل شىء ؟ .

فهل من جديد طارئ على عالم القراءة أو عالم القراء ؟

لا جديد فيما نعتقد غير شىء واحد لا يعطى حقه من الالتفات عند التحدث عن النقد والكتابة فى العصر الأخير .

وذلك الشىء الواحد هو الطوائف الجاهلة أو الطوائف الأمية والشبيهة بالأمية التى دخلت إلى عالم القراءة ، وخلطت بين حرية الرأى وبين القدرة على تكوين الآراء والحكم على حقائق الأمور فى الحياة العامة .

هذه الطوائف تريد من القراءة ما تقدر عليه ولا تطلب شيئاً فوق ذلك لأنها تظن أن المساواة فى حرية الرأى معناها أن الجاهل يساوى العارف فى القدرة على تكوين الآراء والحكم عليها .

وتلك غاشية تجرى إلى مجراها ولابد أن تنتهى إلى منتهاها ، ولا نخالها تنتهى قبل أن يزول هذا الجهل وهذا الغرور ، وقبل أن تصبح حرية الرأى مساوية للقدرة على فهم الرأى وتكوينه .

وسيتم هذا كله إن شاء الله حين يتم التعليم ويصبح التعليم «تثقيفاً» يرتفع بصاحبه من الأمية والمشابهة للأمية ، ويجعله يطلب الرأى من غيره ولو كان هو نفسه من أصحاب الآراء ، لأن صاحب الرأى يفهم قبل كل شىء مقدار الاتساع والتعدد فى جوانب الأمور ومذاهب التفكير ، فينتظر النقد وينتظر الحجة المقنعة ويملك الحجة التى يعارضها بها أو يؤيدها ، ثم يخلق المتخصصين لهذه الوظيفة كما يخلق المجتمع المنتظم ديوان المحاسبة ، ولا يمترى المجتمع فى وظيفة ديوان المحاسبة إلا كان هذا الامتراء علامة الإفلاس ، لا علامة الاستغناء ، فلا غناء عن الحساب حيث يوجد ما يستحق الحساب .

سلام فى كل عام.. وفى مقبل الأعوام..*

بدأنا بحمد الله ، وعلى بركة الله .

سنة جديدة فى مجرى السنين والدهور .

وآية جديدة من آيات هذا العقل الإنسانى الذى يخلق معالم الزمن بيديه ، ثم يحيلها على أفلاك السماء أو على مسالك الأرض ، كلما ضاقت بها مطالعها ومغاربها فى ذلك الفلك الرحيب .

أين هى نهاية السنة الراحلة فى عالم البروج وآفاق الكواكب والنجوم ؟

أين هى بداية السنة المقبلة فى تلك العوالم التى لا تعرف بينها موقع البداية من موقع النهاية ؟

لا أثر ولا علامة .

موضع الثلاث والستين كموضع الأربع والستين ، بعد الألف الأول ، وبعد الألوف التى لا تحصى .

والألف الأول فى أى ترتيب من مراحل الدهور يقع له موقعه الأول !

لا موقف هنالك ولا مسلك ولا مدار ، ولا عدوة هنالك ولا ملجأ ولا جوار .

وإنما هو عقل الإنسان ، فى كل زمان وفى كل مكان ، وفى كل أفق من آفاق السموات ، وفى كل طبقة من طباق الأرضين .

عقل الإنسان هو الذى يخلق معالم التاريخ ، وعقل الإنسان هو الذى يرسم فى دارة الفلك أوائل السنين ومراحل الدهور .

عقل الإنسان هو الذى يرسم خرائط الفلك ويقسم الخريطة الجغرافية ، ويضع حدوده على تلك الخريطة حيث لا تحدها الجبال ولا البحار ولا تصدها الصحارى ولا القفار ، بل يدخلها العقل فى حدوده ويوقعها فى مواقعه ، ويقول للصحراء هنا تدخلين وهناك تخرجين ، حيثما ارتسمت لك جهاتى الأربع إلى اليسار واليمين .

* الأخبار ١٩٦٤/١/١ .

عقل الإنسان هو البيئة التى ترسم للفضاء مواقعه وتقسم على سطح الأرض مسالكه وموانعه .

عقل الإنسان هو الذى يفعل فعله بالتراب والهواء ، وليس هو الآلة الصماء بين دروب الثرى أو بين مهاب الرياح .

وإن يكن آلة بينها – كما شاء عبيد المادة الصماء ، فما هو مثلها بالآلة الصماء .

وفى عقل الإنسان ، لا فى معالم الأرض ولا فى بروج السماء ، ترتسم البداية لهذه السنة الجديدة .

وفى عقله هو – إن شاء – هى سعيدة أو غير سعيدة . .

إن كان سلام فى عقل الإنسان ففى كل مكان سلام .

وإن يكن فى هذا المكان حرب ، أو فى ذلك المكان خراب ، فما هى بالحرب ولا هو بالخراب أو ينتقل فى الخفاء إلى عقل إنسان ، أو إلى عقول جميع الناس .

ولم تتغير الأرضون ولا تبدلت السموات بين بشائر السلم ونذر القتال ، وما يتقاتل حجر وحجر ، ولا جبل وجبل ، ولا سلاح وسلاح ، وإنما يتقاتل بها عقل إنسان وعقل إنسان .

قضاؤك منك وما تقدر ... وداؤك فيك وما تشعر
وتزعم أنك جرم صغير ... وفيك انطوى العالم الأكبر

ولعلها مقبلة بالخير والسلام ، هذه السنة التى ترتسم اليوم على صفحة الأيام .

ولعله مقبل بها على السلم والأمان ، ذلك الإنسان الذى يرسم الأوائل والأواخر ، فى تقاويم السنين ومعارج الأكوان .

ولعله متغير فى غده بإذن الله ، ولا يغير الله ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم . .

صدق الله فيما قضاه . .

وعلى بركة الله !

وللنطق حقه الأول من التقديم عند (الإنسان الناطق) فى مطلع السنة الجديدة . وهذه أسئلة فى اللغة وفى اسم الإنسان الأول من طائفة متفرقة من أصدقائنا القراء ، لا نرى موضعاً أوفق للإجابة عنها من هذا الموضع فى الحديث عن (أول) السنة وعن عقل الإنسان الذى يصنع التاريخ ويدين بالمنطق ، كما يدان .

يقول السيد (بحر عبد الرحمن المغربى) إننا ذكرنا فى كتابنا (اللغة الشاعرة) أننا لا نعرف لغة تفيض بأسماء الأوقات والأزمنة والفصول ، كما تفيض بها اللغة العربية ، فهل لاسم (السنة) فيها مادة أصيلة؟ وكيف اشتقت منه كلمة (السنة) للدلالة على معناها ؟

ثم يستطرد إلى السؤال عن اسم آدم واسم حواء من أين جاء هذا وذاك ؟ وهل معنى التسمية بهما أن اللغة العربية وجدت منذ وجود الرجل الأول والمرأة الأولى على الأرض ؟

والذى نرجحه عن المادة التى يرجع إليها اسم السنة أنها هى مادة (السن) التى كان العرب يميزون بها أعمار الإنسان حسب أدوار حياته ، فهم يقولون «أسن الطفل» أى نبتت له (سن) ثم يصفون الشيخ بأنه (مسن) بمعنى ارتفاع سنه أو بمعنى فقد أسنانه ، كما يقولون أحياناً عن الناهل إنه العطشان ، مع أن المنهل هو مورد الماء .

ومن استخدام السن لأدوار العمر تستعار للمدة من العمر على أرجح الأقوال .

ولا توجد لغة من اللغات ، فيما نعلم ، تدل فيها كلمة السنة على معناها الفلكى ابتداء من غير استعارة قريبة أو بعيدة من مادة أخرى ، فكلمة (يير) Year مثلا تنحدر من كلمة قديمة بمعنى الموسم ، ومثلها كثير من الكلمات فى أصول اللغات الأوروبية .

أما اللغة العربية فقد تمتاز على سائر اللغات بكلمات ثلاث يمكن أن تستخدم لمعانى السنة المختلفة وهى السنة الفلكية ، والسنة من الموعد إلى الموعد ، والسنة التى تتم بها الفصول على اختلاف ترتيب الشهور .

فالمدة التى تبتدئ من أول يناير وتنتهى فى آخر ديسمبر يقال لها (سنة) فى الاصطلاح المتفق عليه .

والمدة من يوم فى سنة ١٩٦٤ إلى يوم مثله فى سنة ١٩٦٥ تسمى بالحول ، ويطلق العام على كل اثنى عشر شهراً كيفما كان ابتداء الشهور .

ومثل هذا التفصيل فى التفرقة بين معانى السنة يعتبر متمماً للتفصيل فى التفرقة بين مدد الأوقات على مثال لا نظير له فى معظم اللغات . . «فالمدة شاملة لجميع المقادير من امتداد الزمن وتنطوى فيها اللحظة أو اللمحة للوقت القصير ، والبرهة والردح للوقت الطويل ، والفترة للمدة المعترضة بين وقتين ، بل وجد فيها

الحين للزمن المقصود المعين ، والعهد للزمن المعهود المقترن بمناسباته ، والزمن للدلالة على جنس الوقت كيفما كان ، والدهر للمدة المحيطة بجميع الأزمنة والعهود والأحيان» .

وقد وجدت فى اللغة العربية كلمات لكل لحظة من لحظات النهار والليل ، فوجدت فيها كلمات البكرة والضحى والغدوة والظهيرة ، والقائلة ، والعصر ، والأصيل والمغرب والعشاء والهزيع الأول من الليل ، والهزيع الأوسط ، والموهن ، والسحر ، والفجر ، والشروق ، ويكاد التقسيم على هذا النحو أن ينحصر بالساعات .

ولم تكن اللغة العربية مع الإنسان الأول قبل التاريخ ، لأنها لغة تاريخية ، أى داخلة فى حدود التاريخ ولو كان من التاريخ المجهول ، ولكننا لا نعرف لغة قد ثبت ثبوت اليقين أنها أقدم فى أصولها من اللغة العربية .

إلا أن اللغة العربية قد احتوت كل جذور الألفاظ التى يقال إنها الأصل فى تسمية آدم وحواء .

فشراح العهد القديم يرجعون باسم (آدم) إلى كلمة (دم) بمعنى الأحمر ، أو كلمة (ادمو) الأكادية بمعنى المجبول أو المصنوع .

واللغة العربية فيها مادة الأدمة بمعنى اللون الأسمر إلى احمرار ، ومادة الأدمة بمعنى القرابة ، ومادة الأدمة بمعنى المواءمة والتوفيق بين زوج وزوج ، لأن آدم زوج لحواء .

أما اسم (حواء) فقد جاء فى الإصحاح الثالث من سفر التكوين فى العهد القديم أنه مأخوذ من الحياة . . . (ودعا آدم اسم امرأته حواء لأنها أم كل حى) .

ومادة الحياة موجودة فى اللغة العربية ، كما توجد فيها مادة (الحوة) بمعنى اللون الذى يشبه لون آدم ، ومنه قوله تعالى : ﴿ . . والذى أخرج المرعى فجعله غثاء أحوى ﴾ .

* * *

وإنه ليحق لأبينا آدم ، ولأمنا حواء ، أن يرقدا هانئين فى تربتهما التى لا نعرفها ، لأنهما -على مر السنين- فى ذاكرة البنين .

ويرى أصدقاؤنا القراء فى هذه اليوميات وحدة ثلاثة أسئلة من ذرية آدم وحواء يؤدون عنهم فريضة الذكرى والسؤال .

تقدم أحدها ، ويتبعه الآن سؤال من السيد (لطفى أحمد عبد الشافى الطالب بكلية الآداب - جامعة الإسكندرية) يقول فيه :

(. . إنه لأمر بديهى جداً أن كل إنسان لا يولد وقد اختار لنفسه اسماً معيناً وإنما يختار الأبوان اسماً للأبناء . . ولكن الشىء الذى نود من أستاذنا الجليل أن يلقى عليه مزيداً من الضوء هو اسم آدم وحواء عليهما السلام ، فمن المعروف أنهما كانا يتخاطبان بالإشارة ولم يعرف كلاهما الكتابة وتسجيل اسم المولود بها ، فكيف عرفهما العالم بهذين الاسمين؟ . . وهل يمكن أن نعلم أن لهذين الاسمين دلالة لغوية كما هو المعلوم عن كثير من الأسماء؟) .

ونقول للطالب النجيب -أخينا فى آدم وحواء- إنه لم يحسن الظن بأبيه الطالب فى مدرسته الخالدة ، فإن الله جل وعلا هو الذى ناداه باسمه فى الجنة وهو الذى علمه (الأسماء كلها) كما جاء فى القرآن الكريم .

أما معنى الاسمين فى اللغة العربية ففى البيان الذى قدمناه غنى عن العودة إليه .

* * *

ولم تقصر بنت حواء عن إخوتها بنى آدم فى مجال السؤال عن الأم حواء رحمها الله .

فالسيدة (شريفة صادق) تقول فى خطابها بعد كلمات طيبات من التحية ، إنها لا تعرف أصلا لقول القائلين إن حواء أخرجت آدم من الجنة ، وإنما جاء فى القرآن الكريم أن الشيطان وسوس لهما معاً ولم يوسوس لحواء وحدها ثم وسوست هى لآدم فكان ذلك سبب خروجهما من الجنة .

ثم تقول السيدة : (. . كما أطلب رأيكم السديد فى النظرية التى تعارض قول دارون إن الإنسان أصله قرد ، لأن أصل القرد إنسان . . وقد فاتنى أن أذكر فى خطابى السابق أن زوجى الأستاذ على إمام شرح نظريته هذه مستنداً إلى آيات من الذكر الحكيم فى كتابه عن الصهيونية وأرض الميعاد ، حيث ذكر فى سورة البقرة : ﴿فقلنا لهم كونوا قردة خاسئين﴾ . . وفى سورة المائدة : ﴿وجعل منهم القردة والخنازير﴾ .

وسنكون عاجزين عن الشكر لو تفضلتم بإبداء رأيكم فى هذه النظرية .

والذى نود أن نقترحه على السيدة البارة بأمنا وأم أمهاتنا وجداتنا أن تعفى المسكين (دارون) أخانا فى آدم وحواء من تهمة الانتساب بكل إنسان إلى أب غير آدم ، والرجوع به إلى جد من القردة فى كل سلسلة من سلاسل النسب تصعد أو تهبط إلى ما قبل التاريخ وقبل آباء التاريخ وأمهات التاريخ .

دارون لا يقول إن الإنسان أصله من القردة ، ولكنه يقول إن الإنسان والفقاريات العليا جميعاً من أصل واحد ، وأن هناك سلالة تبتدئ من جرثومتها وتنتهى إلى الإنسان الأول ، ولكن له اسمه المحفوظ فى سجلنا المحفوظ نحن معاشر الآدميين .

أما الذى نود أن نقترحه على قرينها الفاضل فهو أن يحذر على بنى الإنسان من غرور القردة والخنازير . .

ماذا يصيب الناس من هذا الغرور لو وقر فى دماغ كل قرد أنه فى الإنسانية أعرق من الآدميين؟

وماذا لو وقر ذلك فى أدمغة الخنازير أبناء الخنازير ؟

وإن السيد (الإمام) ليعلم أن فيما نعتقد -أن المسخ قد يصيب الخلقة كما يصيب الأخلاق ، فإن ثبت له فى تقديراته وتقريراته أنه لم يكن مسخاً فى الأخلاق وإنما كان مسخاً فى خلقة الجسد ووظائف الحيوان فمن الثابت فوق كل ثبوت أن الملايين من القردة والخنازير ليس لها آباء ولا أجداد من غير القردة والخنازير . وإننا لا نستطيع أن نقابل قول القائلين إن الإنسان كان قرداً بقول آخر يقول : كلا . . بل أصل الإنسان قرد وأصل الإنسان خنزير .

أما الذى نود أن نقترحه على أبناء آدم الذين برئت أنسابهم من أسلاف قردية أو خنزيرية – فهو البر بالآدمية ، وبالأخوة فى الآدمية ، مدى السنين ، بعد ثلاث وستين وأربع وستين .

وليكن لهم هذا البر المشكور بروح الأب آدم وروح الأم حواء ، ولكنه البر الذى يتنزهون به عن عقوق الأبوين فى كل قرة عين .

ولا عقوق بعون الله فىَ ولد يذكر أخاه كما يذكر أخاه ، ويطوى السنين والأيام ، فى أخوة ووئام ، وفى مودة وسلام . .

سلام فى هذا العام ، وعلى مدى الأعوام .

شم النسيم و البصل *

وها نحن أولئك لا نأبى أن نحسب من الواقعيين أو من الطبيعيين حيث يصح هذا الحساب ، لأننا ننتقل من أبراج السماء ومذاهب الأدب إلى البصل والفسيخ .

كتب إلينا العالم الكيمى الدكتور ناشد سيفين من الإسكندرية يقول تعقيباً على ما كتبناه عن شم النسيم :

« . . وهذا العيد كما قلتم هو عيد رأس السنة . وعادة شم البصل عند القيام من النوم فى صباح ذلك اليوم هى للتذكير بهذا ، وهو تقليد مأخوذ من عادة لا تزال باقية فى الريف إلى أيامنا ، وهى يشم الطفل البصل عند ولادته لتنبيهه بما له من رائحة نفاذة . غير أن الناس الآن لجهلهم الغاية من هذا التقليد وسببه صاروا لا يكتفون بشمه بل يأكلونه ؛ ولكى يجعلوا أكله مستساغاً أضافوا إليه الفسيخ فصار طعامهم المفضل فى يوم شم النسيم . . ولقد كان عيد رأس السنة يقام طبقاً لأسطورة عن الإله تقول : إنه غضب على الناس فى الزمان القديم لعصيانهم فسلط عليهم مهلكاً على هيئة أنثى الأسد فأمعن فى الناس تقتيلا حتى تغطت الأرض بالدم واصطبغ النهر بلونه ، ثم عفا الإله عن الذين اختارهم ليكونوا شعبه فأرسل هاتور بحيلة تنفذها وهى أن تأمر النساء أن يصنعن من الشعير خمراً ويمزجنها بعصير العنب الأحمر ليكون منه شراب مسكر بلون الدم ثم يسكبنه فى الفجر قبل بزوغ الشمس فى الأماكن التى اجتازها المهلك فيحسب أنه دم أعداء الإله . . . وأمر الإله أن يعتبر هذا اليوم أول الأيام ، ويقام فيه العيد باسم هاتور وتشرب الخمر التى بلون الدم لذكرى الخلاص ، واعتياد الناس الخروج مبكرين فى يوم شم النسيم إلى الأماكن الخلوية ومعهم شراب العنب والأشربة الأخرى المصنوعة من الشعير هو بقية تقاليد كانت عند الأقدمين . . .

وقد أخرج بنو إسرائيل من مصر فى شهر أبيب ، وفى الشهر الثالث أى فى توت الذى يقع فيه رأس السنة المصرية هفت نفوس القوم وهم فى برية سيناء إلى مباهج ذلك العيد وطلبوا أن يصنع لهم تمثال عجل – وكانت هاتور ترسم على صورة بقرة – ثم نادوا غداً عيد للرب ، وبكروا من الغد فجلسوا للأكل والشرب . . ولنذكر أن اليهود جعلوا شهر أبيب فصحاً لهم يحتفلون به فى الرابع عشر من شهر نيسان وهو

* أخبار اليوم ٢٦ / ٥ / ١٩٥٦ .

يوافق أبريل بحسب التقويم الغربى .. ولست فى حاجة بعد ذلك لأن أبين لسيادتكم أن قوم إسرائيل ذكروا الضربات ومنها تحويل الماء إلى دم على منوال القصة المصرية ليكون لهم عيد على شاكلة عيد هاتور» ..

* * *

ونحن ننشر ما اتسع له المقام من خطاب العالم الكيمى الباحث الدكتور سيفين شاكرين له دراسته التاريخية لنستخلص منها ما ينبغى أن يخلص للقراء العصريين من أبناء مصر : وهو ضرورة العودة إلى كتابة قصة الخروج – خروج بنى إسرائيل – من الوجهة المصرية التى هى فى الحق وجهة التاريخ الصحيح .

فالواقع – من القرائن التاريخية – أن بنى إسرائيل الذين خرجوا مع موسى عليه السلام لأسباب دينية قليلون جداً بالقياس إلى جميع أسباط إسرائيل ، ولهذا كان منهم من يقول له – كما جاء فى العهد القديم – من الذى ولاك علينا وخولك حق القضاء بيننا ؟

ولم تكن جمهرة القوم ممن ينكرون العقائد المصرية ولا كان علماء المصريين ممن يجهلون التوحيد ، بل كانوا موحدين كما قال أبو التاريخ هير ودوت .

ولكنها كانت فترة ارتداد بعد شيوع الوحدانية كما يؤخذ من تاريخ عصر أخناتون ، وخرج القليلون مع موسى عليه السلام لأسباب دينية وخرج الآخرون كراهة للعمل اليدوى الذى سخرهم فيه أمراء الشمال ، وبقيت جملتهم على التقاليد المصرية فى الأعياد والشعائر والقرابين ، ومنها الاحتفال بعيد الربيع الذى سموه عيد الخروج ، ومنها أناشيد الصلاة التى ينظمونها على قواعد النظم الفرعونى مع أنهم ساميون .

البصل والفيتامين

إلا أننا نخالف الدكتور سيفين فى مسألة من مسائل الكيمياء أو تاريخ الكيمياء . فإن تقديس البصل وارتباطه بالولادة والحياة تقليد مصرى قديم يدل على عراقة هذه الأمة فيما نحسبه اليوم من أحدث المعلومات ، وهو معلوماتنا عن الفيتامينات والهرمونات .

فالمصريون كانوا يقدسون من الخضر أصنافاً ثلاثة لعلها أغنى الخضر بالفيتامينات وهى البصل والخس والثوم .

فالبصل – وهو مأخوذ من الاسم المصرى بسرو – قربان محبوب فى الشعائر الفرعونية ، وتوجد له صورة بين القرابين المقدسة إلى جوار الباب الكبير بمعبد القرنة ، ويدخل فى شعائر الاحتفال بالربيع ، لأنه مع البيض من رموز الحياة والولادة .

والثوم يقدسونه ويختلط الأمر على الشاعر الرومانى الهجاء جوفينال فيقول متبرماً : «ماذا أصنع بين قوم يعبدون الثوم ؟ »

والخس يسمى عندهم « عفت» ويوصف بالحشيش المقدس كما جاء فى ورقة العلامة « ايبرز» عالم المصريات المشهور ، وهو من القرابين المستحبة عند إله النسل ، وله خاصة تساعد فى اصطلاحنا العصرى على توليد الهرمونات .

فالمصريون الأقدمون كانوا يعرفون هذه النباتات بخصائصها ويقرنون بينها وبين شعائر الأعياد فى مناسباتها ، وأكلهم للفسيخ عادة قديمة لعلها تجددت وشاعت بعد الإقبال عليه رغبة فى المشهيات على أثر الصيام الطويل .

وليس بالفسيخ –فى الواقع– من عيب .. وإنما العيب فى أكله مع النشويات وفى الإفراط منه والإكثار من شرب الماء عليه ، ولا أكتم الكيمى الفاضل أننى أصنعه أحياناً فى منزلى ولا أشكو منه كما يشكو الذين يسيئون أكله .. لأنه من أحسن الأطعمة وأغناها بمادة الغذاء .

أما قصة الشراب الأحمر فإننى أحيل الدكتور سيفين إلى خلاصتها التى نقشت على جدران الحجرة الخاصة فى هيكل سيتى الأول الذى بنى قبل خروج بنى إسرائيل من الديار المصرية ، وأحيله كذلك إلى كتابنا عن إبليس لأننا أجملنا فيه هذه القصة ثم عقبنا على إجمالها بالعبارة التالية :

«وتروى قصة النقمة من البشر على روايات شتى يكثر فيها التناقض على ما هو مألوف فى الأساطير الأولى . فأشدها وأصرمها هذه القصة التى نقشت على هيكل الملك الذى يهمه أن يبالغ فى بطش الأرباب ومصير العصاة ، وأقربها إلى الرفق تلك الروايات التى تقول : إن الأرباب راجعوا الإله الأكبر وراح بعضهم يصبغ الجعة بالأصباغ الحمراء ليحكى بها لون الدم ويزعم للأرباب الساخطين أنه قد أريق منه مايكفى للزجر والعقاب .. » .

وربما كان أحدث الآراء فى تفسير هذه الظاهرة كما حدثت لأول مرة قبل وجود بنى إسرائيل فى مصر أن نجماً مذنباً عبر بوادى النيل فامتزجت غازاته بالنيل فاحمر لونه وفسد ماؤه وكثرت حشراته وأصيب الناس بالأوبئة وطفا بعض الماء على وجه الأرض فأصاب الزرع وأتلف الثمرات وعم القحط بعد ذلك ، وأصبحت القصة نموذجاً لما أتى بعدها من قصص العقاب أو قصص الضربات والنكبات .

وأيًا كان تفصيل القصة فللتاريخ المصرى القديم كلمة فيها لم يقلها بعد ، وأكثرها مخالف لكلمات بنى إسرائيل ومن تبعهم من رواة القال والقيل .

سهوات الحكيم*

نعدو من سهوات التاريخ إلى سهوات زميلنا الأستاذ الحكيم .

لقد سمع هذه السهوات اليوم بأذنية ، وأوشك أن يسهو فيقول كعادته : حصل . جائز . . لولا أنه أحيط بضجة من القهقهة لا تبقى على أعمق السهوات .

تحدث بعضهم عن سهوات الحكيم – وهو سامع – فقال :

إنه كان يسهر أيام العزوبة فى أحد الأندية العامة ، فهبط عليه صديق يقول له بلهجة الأسف والملام :

يا أستاذ ! أنت ساهر هنا وزوجتك تسهر فى سيارة فلان إلى هذه الساعة ؟

فوثب الأستاذ وهرول إلى المنزل ، وصاح بالخادم وهو يفتح له الباب فى غضب لم يعهده منه قط :

أين الهانم ؟ أين الهانم ؟

قال الخادم دهشاً : أى هانم يا بك ؟

قال الأستاذ : أى هانم ؟ امرأتى يا أبله !

فغلب الخادم دهشة وضحكاً وقال له وهو لا يصدق ما يسمع : ولكنك يا بك غير متزوج !

وانتقلنا إلى حديث «السهاة» المشهورين فذكر زميل كبير قصة الأستاذ أحمد أمين رحمه الله وهو فى ترام مصر الجديدة وعامل التذاكر يسأله عن الاشتراك فيخرج له الساعة ويدنيها من عينيه كلما كرر السؤال .

قال عامل التذاكر : أنا أسألك يا بك عن «الأبونيه»

قال الأستاذ وهو لا يزال فى ذهوله : وما هذا الذى تراه إذن بعينيك !

وقيل عن الأستاذ أحمد ، طيب الله ثراه ، إنه كان يكره السبانخ وقدموه له يوماً على المائدة فقال متأففاً : ما هذا ؟ سبانخ !

* أخبار اليوم ١٩ / ٤ / ١٩٥٦ .

قالوا ! نعم . لقد علمنا أنك تكره الرجلة فطبخنا لك السبانخ بدلا منها . .

فأقبل على الطعام يأكله باشتهاء ، وقال شاكراً : حسناً صنعتم . أكثروا منه بعد الآن . . .

الحق أن العبقرية المصرية فى فن القفشة ، قليلة النظير ، وقد كان أغرب ما سمعناه عن الأدباء «السهاة» من أعلام الغربيين قصة «ليسنج» ملك النقاد ، ولكن قفشاتنا المصرية – بغير تعصب – أبرع من قفشات الألمان .

كان ليسنج يعود إلى منزله كل ليلة عند منتصف الليل ، وذهب قبل الموعد ذات ليلة فدق الباب وأطل عليه الخادم من النافذة فقال له : إن الأستاذ لم يرجع بعد .

فرجع الأستاذ من حيث أتى وهو يقول : طيب . سأعود فى فرصة أخرى !

قفشاتنا نحن أبرع وأحق بالتدوين ، ولكننا نأسف لأننا لا نحفل بها ولا نجمعها كما صنع السلف الصالح من جامعى النوادر والفكاهات ، وما كان الزاد الأكبر من طرائف العقد الفريد والأمالى والبيان والتبيين إلا من هذه البضاعة التى نسهو عنها فى أدبنا الحديث .

وحقيقة أمرها أنها أكثر من فكاهات : إنها صورة نفسية واجتماعية ، ولمحات من العبقرية القومية ينبغى أن نضيف تراث العصر منها إلى سائر العصور .

بين ذوات الأربع *

وصلت إلىّ فى خلال الأسبوع رسالتان ، إحداهما تنصرف على الأكثر إلى الحمار وتاريخه وكلمة الفنان وعلاقتها فى اللغة العربية بالحمار ، والأخرى تنصرف على الأكثر إلى الفيلسوف «بريدان» ومكانه من الفلسفة بين الناس ، وبين المخلوقات الأخرى التى اختار منها المثل لحكمته المشهورة .

وتشاء ذوات الأربع بعد ذلك بأيام قليلة أن تبرز فى صفحات الحوادث بأخبار تلفت إليها الأنظار ، وتستحق من أجلها التقديم على الأقل فى مضمار التعليق .

من الذى يترك الثور الثائر على اللغة العربية ويتكلم على حمار «بريدان» ؟

ومن الذى يتكلم عن الفنان الذى يسمونه فى القواميس حمار الوحش ويترك حمار العمدة ؟

الثور الثائر على اللغة العربية ، وحمار العمدة - الذى أثار المعركة فى البلدة الآمنة - كلاهما أحق بالسبق وأولى من حمار «بريدان» وبرسيمه بالتعليق .

وكلاهما له سر قد تواطأت الصحف جميعاً على إخفائه ، ولم تنشر منه إلا الجانب الذى يثير السخرية ويغطى على حقيقة الموضوع .

وحقيقة الموضوع كما علمناها أن الثور والحمار معاً من أصحاب الرأى والنظر ، وأن الهجمة التى هجماها فى وقت واحد لم تكن قفزة طائشة من قفزات الحيوان كما يصورها بنو آدم المغترون بالآدمية فى زمان بطل فيه هذا الغرور ، ولم تكن جمحة شاردة من جمحات ذوات الأربع التى لا تحتاج إلى شىء غير القيد واللجام كلا . . . لم تكن قفزة ولا جمحة ، ولكنها رأى أصيل ينبغى أن نصغى إليه طائعين وإلا أصغينا إليه فى يوم من الأيام كارهين .

الثور الثائر

فالثور الثائر يهجم على مجمع اللغة العربية عامداً متعمداً عن سبق روية وإصرار ، ويعلم الساعة التى اختارها للهجوم لأنها ساعة من ساعات الأسبوع الأول فى الإجازة ، يسهل فيها الاقتحام ويؤتى فيها الرجام .

* أخبار اليوم ٢ / ٧ / ١٩٥٥ .

ولم يكفر هذا الثور - صاحب المبدأ - فى دعوته ولا فى كلامه الذى تلقاه عنه من يفهم الخوار ، ولا يخفى عليه هذا الأسلوب من الحوار .

الثور المسكين لم يقل إلا ما قالته العجماوات من قبله فى الحملة على اللغة العربية ، وإن كان الثور المسكين أصدق من زملائه منطقاً وأقوى منها حجة حين يعم بالقول جميع اللغات : لغات بنى الإنسان .

ما هذه العناية بلغة الإنسان دون المئات من اللغات التى ينطق بها الحيوان ؟

ما هذه الأموال التى تؤخذ من عرق الثور الحارث والحمار الكادح والحصان المجهود والجمل المكدود من أجل ألفاظ وأصداء ، يهرف بها أبناء آدم وحواء .

ويقول الثور ، ولم يكذب ، إن هؤلاء الأبناء من ذرية آدم وحواء ، قد عبدوا ذوات الظلف قبل الآن ، وتقدموا إليها بالدعاء والقربان . . !

ويقول الثور ، والعهدة عليه ، إن أبناء جلدته نهضوا فى تاريخ الأرض كلها بأعظم الأعباء وأحقها بالذكر والثناء ، فما زال واحد منهم يحمل الأرض البوار بما عليها من الأوزار ، حتى أخرجها الآدمى -كوبرنيكس- إلى المدار ، وطار بها فى الفضاء كل مطار ، فهى من يومها كالريشة فى الإعصار ،لا تستقر على قرار . .!

قالها الثور واستمات

وقالها من قبله زملاء له ولم يستميتوا وستقال بعده بكل خوار أو حوار ، مادام الليل والنهار !

وحمار العمدة

وأما حمار العمدة فأول ما يقال عنه إنه ليس بحمار ، وإنما هو جمل السنجق القديم يتقمص أجساد الحمير ، ويستعيد اليوم عهداً كاملاً من السلطان ، فلا تعنيه قبضته هنا من الحشيش أو هناك من البرسيم .

وحديث الجمل وسنجقته شرح يطول ، يذكره الأقلون من الأحياء ، وينساه الأكثرون .

كان من أمة الجمال ولم يكن من أمة الحمير .

وكان السنجق صاحب الجمل أمير الإقليم كله ، يطيعه الناس كما يطيعون جمله ، ويستمع منهم هذا كما يستمع منهم ذاك ، وكلاهما لا يستمع لمن يقول ولا لما يقال .

وعاث الجمل فى الحقول ، وطغى الجمل على الحمير والبغال والثيران والعجول .

وحارت فيه الأيدى والعقول .

يدٌ لا تستطيع أن تمتد إليه ، وعقل لا يهتدى فيه إلى حيلة ، ولا بد من حيلة تحتال ، ومن حال تحول . . .

وتفتقت الحيلة بعد حين .

وخافوا متفرقين فتشجعوا متجمعين وقدموا عليهم وكيلا يتكلم عنهم ، إذا بلغوا السنجق راكعين ضارعين خاضعين .

وكانوا ثلاثين ، فأصبحوا عند باب الديوان عشرين ، وأصبحوا عشرة عند باب الحجرة ، وأصبحوا عند الكرسى واحداً فرداً ينظر وراءه فلا يرى وراءه ولا حواليه من أحد . . وهو الوكيل الشجاع الأمين . .

– ما الخبر ؟

– الجمل يا حضرة السنجق

– وما للجمل ؟

– الجمل يا حضرة السنجق وحيد فريد ، بلغ سن الزواج فى عزك وجاهك ، ولا بد له من خطيبة قريبة . . والخطيبة القريبة عند هؤلاء ، يعودون بها اللحظة إن أمرتم باللقاء . .!

وأمر السنجق باللقاء ، وعاد الوكيل الأمين إلى موكليه ، ليقول لهم إن أسماءهم مقيدة فى الديوان ، فإن لم يعودوا بالناقة قبل أن يبرح السنجق مكانه ، لم تبق منهم غير تلك الأسماء !

وجلية الخبر فى قصة حمار العمدة أنه الجمل القديم الذى ظفر بالناقة ، وأنه كان يتطلع إلى الأتان ، ولا يعلم كيف دار الزمان ، فإذا نجا بجلده وأمن غائلة عهده ، فقد هان على الجلد السليم ضربة أو ضربتان !

ومن حديث شهر زاد

ولا نفتئت على زميلنا الأستاذ الحكيم

ولا نخالسه الود مع فتاته شهر زاد

ولكننا نسمع كما سمعت شهر زاد سر اللغة التى يوحى بها إلى الإنسان فيفهم بها حديث الطير والحيوان .

وللمصادفة التى لا حيلة لنا فيها كانت «الشفرة» فى هذه اللغة أيضاً شفرة الثور والحمار .

كانا صديقين فى دار رجل من المطلعين على طلاسم سليمان الحكيم ، وشكا الثور سوء حاله لصديقه الحمار فنصح له الصديق بأن يتمارض فلا يأكل علفه الذى يوضع له فى المساء ، فقد يرحمونه لمرضه فلا يسوقونه إلى المحراث عند طلوع الصباح ، والسكوت عن الكلام المباح . . .

ورحموه كما ظن الحمار ، ولكنهم صنعوا شيئاً لم يقع فى ظنه عند إسداء النصيحة لصاحبه ، فقد أخذوه هو إلى المحراث لينجز عمل الثور فى ذلك النهار .

وآثر الثور عضة الجوع يومين أو ثلاثة على شقاء العمل من مشرق الشمس إلى مغربها ، فهلك الحمار وهم بالفرار ولا سبيل إلى الفرار .

لكن الشقاء يفتق الحيلة حتى للحمير ، فما عاد من الحقل فى اليوم الثالث حتى بادر الثور قائلا فى لهفة المشفق عليه كل علفك يا صاح . . كله كله . . فقد سمعتهم يتشاورون فى ذبحك غداً مخافة أن تموت . . .

واستمع صاحب المزرعة إلى هذه المناجاة بين ثوره وحماره فضحك ، ورأته امرأته يضحك فغضبت ، وأراد أن يسترضيها فلم يقدر ، لأنه مؤتمن على السر الذى يكتمه العليم به أو يفشيه فيهلك ولا ينجو من العذاب .

وتصر المباركة ويلين المبارك ، ويكاد يستعد للموت لولا حديث آخر من أحاديث الحيوان يسمعه هذه المرة من الديك ، ويسمع فيه شتمه بأذنيه ، لأنه يفرط فى حياته من أجل زوجة واحدة ، وديكه سيد الحريم الكامل من الدجاج يترك هذه الزوجة ليقبل على تلك فلا تعارضه هذه ولا تلك فيما يريد .

ويعمل صاحبنا بالنصيحة ، فترجع الزوجة اللجوج عن دلالها القاتل ، وسلم الرجل وتسلم المرأة معاً من الكارثة ، خوفاً من «تعدد الزوجات» . . .

تعدد الزوجات

وتعدد الزوجات حديث اليوم الذى يقحم نفسه فى كل موضع وكل موضوع بعد

وقد عاش بريدان Buridan بين قومه الفرنسيين ولم يكتب لهم حرفاً باللغة الفرنسية ، ففتح على نفسه باب الدعوى الكاذبة بالكتابة باللغة اللاتينية ، وشاع عنه منذ القرن الرابع عشر أنه صاحب المثل المشهور عن الحمار بين الحزمتين أو بين الحزمة وجردل الماء واختلفت الروايات ولم يختلف الرواة فى اتهام الفيلسوف المظلوم .

قالوا عنه مرة إنه يقضى على حماره بالموت جوعاً إذا تردد على حد سواء بين حزمتين من طعام واحد ، أو تردد على حد سواء بين إرواء عطشه من جردل الماء ، وإشباع جوعه من حزمة البرسيم .

وقالوا عنه إنه كتب ذلك فى رسالته عن أخلاق أرسطو وحرية الاختيار ، فإذا بالرسالة تظهر بعد حين وليس فيها حرف واحد عن الحمار ولا عن البرسيم ولا عن جردل الماء .

وعلى نفيض ذلك ظهر أن الشاعر دانتى ، الذى عاش قبله ، ذكر هذه المشكلة وارتفع بها من الأرض إلى الفردوس السماوى وافتتح بها نشيده الرابع فى رحلة السماء ، وتحدث عن الحمل الذى يقف بين ذئبين يخافهما على السواء ، وعن كلب الصيد الذى يقف بين غزالين ولا يجرى هنا ولا يجرى هناك ، وعن العقل الذى يقف بين شكين ولا سبيل بينهما لليقين .

وسبقه فيلسوف المسيحية -توما الأكوينى- ليبطل سلطان الحس على العقل والإرادة ، ولم يكن «بريدان» يومئذ يحسن التردد بين ثديين فى صدر واحد ، أو يحسن التردد بين ظلمات الرحم ونور النهار ، لأنه لم يدخل بعد فى تلك الظلمات !

وجاءته التهمة خبط عشواء ، ولصقت به إلى اليوم ، وستلصق به فيما يلى من الأيام ، وسيفرض عليه الحمار الذى يلاحقه حيث كان . .

وهذه قصة بريدان وحمار بريدان .

الحديث الذى أفضى به الأستاذ الأكبر شيخ الجامع الأزهر وبعد تعقيبات المعقبين والمعقبات عليه ، ولكننا لا نريد أن نغتنم الفرصة التى أقحمته علينا بين السطور لنخوض فيه ، فمهما تبلغ بنا الخاضة فى هذا البحر فلن نخرج منه بغير النتيجة التى خرجنا بها غير مرة ، وهى أن تعدد الزوجات محنة يساق إليها الرجل العاقل مضطراً ويندفع إليها الرجل السفيه لغير ضرورة ، وأن المجتمع حقيق بأن يحاسب الزوج الذى يبنى بأكثر من زوجة واحدة ليتعرف قدرته على العدل المشروط فى تعدد الزوجات . ومنه بل فى مقدمته العدل فى الإنفاق على الأسرة فى بيتها أو فى بيوتها المتعددة ، لأن المجتمع هو المسئول عن جرائر العجز والتقصير فى تربية الذرية وصيانة الزوجات ، ولكن المجتمع على هذا كله لا يستطيع أن يحرم على الناس تعدد الزوجات فى بعض الحالات ، لأنه أرحم من تطليق المرأة العاقر أو المرأة المريضة ومن تعطيل الزواج عن مهمته التى لا معنى له بغيرها ، وهى الذرية .

على أننا لم نعرض لتعدد الزوجات فى هذه اللمحة العاجلة لنخرج منه بالقول الفصل الذى لا سبيل إليه وإنما عرضنا له لنقول : إننا بحمد الله لن نحتاج إلى تهديد أحد له لكتمان السر الذى وعيناه وحفظناه ، وهو سر اللغة التى يجرى بها منطق الطير والحيوان .

ولسنا -وايم الحق- نفشى سراً إذا قلنا إن العجب فى هذا الزمن إنما هو الكلام بلغة الإنسان على كثرة ما يسمع فيه من أقاويل الحيوان . ولولا أن العجماوات لاتعلم أنها عجماوات ، لما كانت لغاتها سراً من الأسرار فى هذه الأوقات .

ولنعد إلى حمار الحكيم

وأما وقد مضينا حتى الآن على سنة الأهم قبل المهم ، وقدمنا حديث الحمار الذى يحن إلى عهد السناجق والأغوات والثور الذى يثور على اللغة العربية ولغات الآدميين أجمعين . .